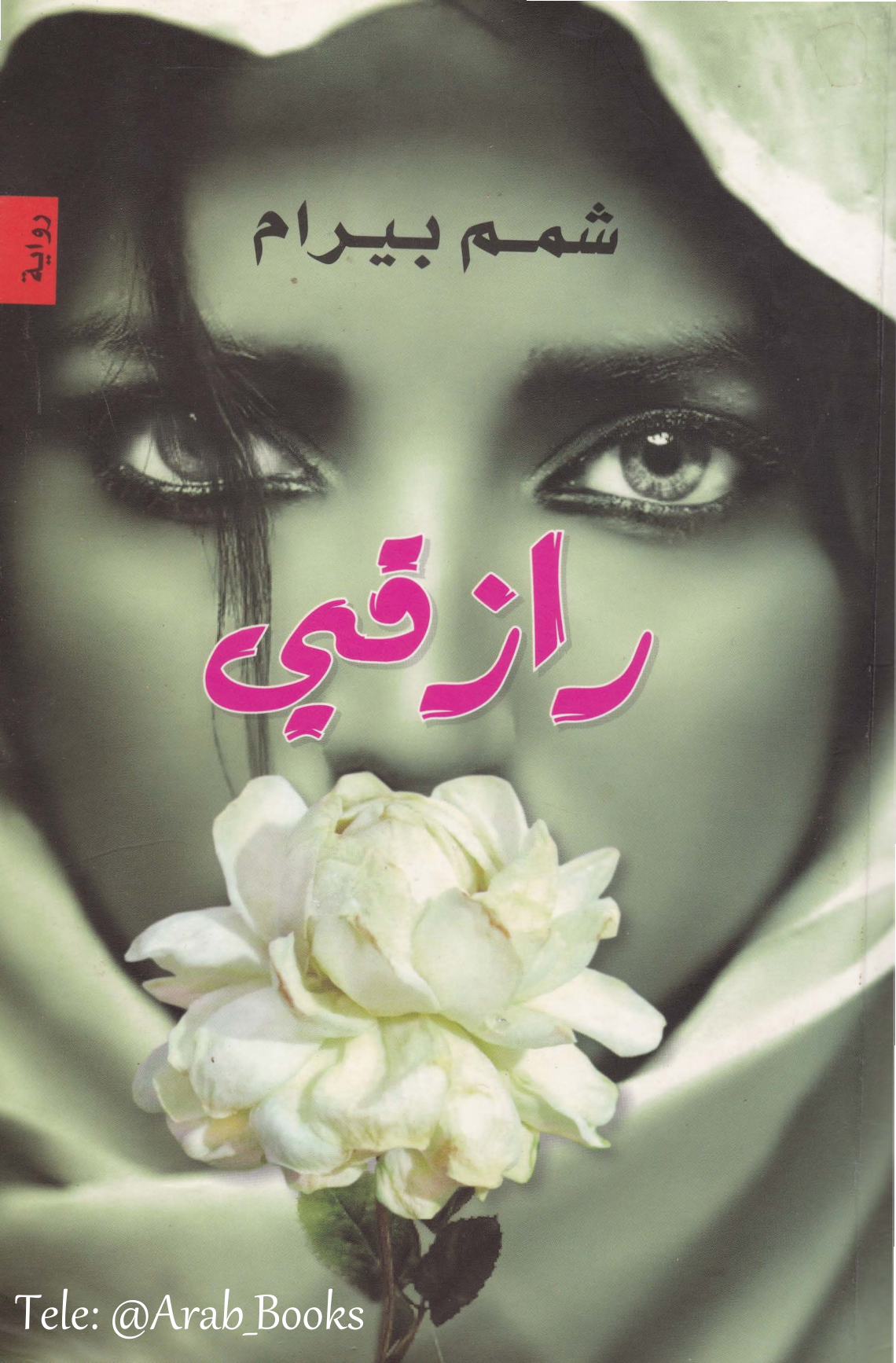

Tele: @Arab_Books

رازقي

Arab_Books

المؤلف: شمم بيرام
عنوان الكتاب: رازلي
سنة الطبع: 2016

توزيع للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 600
+ 964 (0) 790 1919 290

Arab_Books

رواية

شمم بيرام

رازقي

Arab_Books

Arab_Books

غُربة

حُصصت التربة

سُحبت الثقة من الربيع

وأعلنت الشمس مسؤوليتها

عن اغتيال

الزهرة

Arab_Books

إهـــــــــداء

إلى بغدادية حسناء

عطَّرت صباحات طفولتي

بنفح بات لعنتي

لتلك التي علمتني

أن العطر عشقٌ

والذكرى وطنٌ

إلى إقبال عدنان

Arab_Books

Arab_Books

الفصل الأول

فتحت عينيها بهدوء وتكاسل، كان حلماً جميلاً يصعب عليها مفارقته.. ولكن التوقيت اليومي للواقع كان قد بدأ.

شعرت بفرح كبير حين رأت أميال الساعة تقف عند السادسة تماماً، لديها نصف ساعة كاملة للتأمل وشرب قهوة الصباح، حاولت النهوض بهدوء كي لا يستيقظ «هو»، رغم معرفتها التامة بأن نومه عميق جداً... كم تمنت لو كان كل ما فيه بهذا العمق.

انسلَّت بهدوء خارجة من غرفتها.

أضافت كلمة «شاي» إلى قائمة التسوُّق المعلقة على باب الثلاجة، لم تنفد العلبة بعد ولكنها لن تنتظر نفادها حتماً.. فتحت باب الشرفة لتستنشق تلك النسمات الباردة التي تبث تلك القشعريرة التي تخبرها بأن إحساسها بما حولها لم يتلبَّد بعدُ... شهقت بقوة ساحبة لأكبر كمية ممكنة من الهواء، بدأ النبض يسري في شوارع المدينة، الجميع متوجهون نحو أهدافهم وأحلامهم، بل وحتى مشاكلهم، فهم يخرجون لإيجاد الحلول لها، بينما تبقى هي واقفة هنا، في يوم ما كانت تملك طموحاً هائلاً يوازي كل أحلام من يمرون الآن أمامها مجتمعين لكن...

Arab_Books

– ماما ماما.

– صباح الخير يا روحي.

– أرجـوك ابعـدي صخراً عني، فهـو لا يكف عـن إزعاجي أبداً، أخبرته بأني سأشكوه إليك لكنه لم يعرني اهتماماً.

كانـت ستتوجه نحو غرفة طفليها حين وجـدت صخراً يقف على باب الشرفة، ومعالم الخيبة واضحة على وجهه.

– سيكون حسابه عسيراً.. اذهبي الآن وابدئي بتحضيرات يومك.

– دوماً تقفين في صـف «وِد» تنحازين إليها حتى دون أن تسأليني أولاً.

أطـلَّ «هو» بلباس نومه الحريري الذي لا يتجعد أبداً، صباحاً تتمنى أن تعـرف ما وراء هذا السـر.. عموماً هو لا يتقلب أثنـاء نومه إطلاقاً، لا بـد أن هذا هو السبـب الرئيسي، اقترحت عليه كثيرا أن تنام في سرير منفصـل لتجنبه إزعاج معاركها الطاحنة مـع الفراش حتى يشفق عليها النوم ويزورهـا أخيراً، لكنه كان يرد عليها في كل مرة: لا عليك فأنا لا أشعر بتقلباتك إطلاقاً.

وقد تكون هذه واحدة من ردوده القليلة الصادقة التي يقولها.

– لا عليـك يا بني فوالدتـك تنحاز دوما للنسـاء.. سنفهم يوما سرَّ كرهها العميق للرجال هذا.

صوّبت نحـوه نظرة خاصة يفقه معناها جيداً، هذه النظرة هي التي

Arab_Books

خلصتها مـن أحضانه ليلة البارحة، وسابقتهـا في الأسبوع الفائت، أو حتى منذ فترة لم يعد يحسبها، أو يعرف لها عدداً أو رقما محدداً.

لا شـيء يجمعهمـا، ليـس بينهمـا سوى الخـواء، فـراغ وسكون موحش، تكسـره بين الفينة والأخرى جمل مقتضبـة مؤطرة بقوسين، يقولان خلالها ما يودان بسرعة واقتضاب.

حـين اقـترب من الثلاجة التـي كانت تخرج منها مـا تحتاجه لصنع الإفطار.. ابتعدت بسرعة وقالت بلهجة آمرة:

عشر دقائق فقط ويكـون الطعام جاهزا، أكملوا استعدادكم خلالها حتى لا يبرد.

التفت هو نحو ودٍّ وصخر:

هيا يا أولاد نفذوا ما قالته أمكم.

ونظر نحوها مكرراً ما قاله..

تجاهلته وبدأت بتحضـير الإفطار بطريقتها الآليـة المعتادة، سمعت مـن إحدى قنوات الطبخ ذات يـوم أن طهو الطعام بابتسامة يحقق لك انجـاز وجبة لذيذة وممتعة، جربت في إحدى المرات هذه الوصفة لكنها أحرقت الطعام يومها، وهذا ما لم يحدث معها من قبل، منذ ذلك الحين عرفـت أن ابتسامتها قادرة على خداع الجميع، إلا تلك المكونات التي اعترضت على كذبها وعاقبتها.

Arab_Books

Mom..I don't feel well

– عربي..

أجابت دون أن ترفع نظرها عن المقلاة، كانوا قد أنهوا استعداداتهم للتو.

ردت «ود» على أخيها «صخر» وهي تقلب طعامها بهدوء:

– لا تتلكم غير العربية، أنت تعلم أن هذا يغضب ماما جدا.

– هذا الأمر لايعنيك.

– توقفا حالاً وتناولا طعامكما، ستتأخران على باص المدرسة.

– ماما اليوم هو يومي المفضل، لدي حصة لتعليم مم، لا أعرف اسمها بالعربية تلك التي نستخدم بها الـ....

ألقمتها قطعة من الجبن.

– دروس رسم يا ودّ.

– كفي عن الضغط عليهما دعيهما يتحدثان كما يرغبان.

تركت كرسيها وتوجهت نحو إبريق الشاي لتسكب له كوبا.

– أكسبرسو لو سمحتِ، أشعر أن رأسي سينفجر.

ابتسمت بخبث، وهي تودُّ أن تسأله إن كان معتاداً على شربها في

Arab_Books

منزلهم الريفي، في تلـك الضواحي المتآكلة، حيث منزل والديه، لكنها آثرت السكوت، ليس اليوم أو على الأقل ليس الآن وبحضور الأولاد.

رنَّ منبه الساعة....

– خمس دقائق وسيصل الباص أكملا طعامكما بسرعة.

ارتشف قهوته الخفيفة وعلَّق قائلا:

– كوني عفوية أكثر لا مبرر لأن يكون كل شيء محسوباً بالثانية.

– يعجبنـي تناقضـك، ولكنك على حق، فقد تركـت عفويتي منذ وقت طويل، وقراري الأخير الذي اتخذته بهذه الطريقة كلفني الكثير.

تجاهلها محولاً نظره إلى شاشة جهازه اللوحي، ليقرأ آخر أخبار وطن يبعد عنهـم فراسخ ومحيطات، كثيراً ما كرهت هـذه الطريقة في معرفة أحـوال أهلها ووطنها، فكيـف لنا أن نصدق صحيفـة الكترونية تنقل لنا خـبراً مأساوياً بشاشـة مضيئة جميلة، يظهر فيهـا إلى جانب صورة الشهيـد إعلان عن ربـح جائزة، وصورة فتاة مبتسمـة وسعيدة، كيف لـه أن يتفاعل مع مقال لا يترك بصمته الحبرية السوداء على إبهامه، كما يترك الحِداد وقعه على أرواحنا المغتربة.

– لا أريد الذهاب إلى المدرسة، معدتي تؤلمني..

– صخـر أمسـك بيـد أختك وكـن حذراً عنـد صعـود الباص.. ستتأخران هيا.

– مام.....

Arab_Books

– لن أستمع لك....

أغلقت الباب خلفهما، وهي تردد ذات الآيات التي تقرؤها بعد خروجهما كل يوم، كانت تفكر بقلق بما يحدث مع صخر، فخلقه للأعذار المتواصلة للتهرب من مدرسته عادة جديدة لم تعتد عليها منه، تخاف أن يكون هناك سبب خفي وراء ما يحدث، لا نزق الأطفال المعتاد فقط.

توجهت إلى غرفة نومهما لتنظيم ما تبعثر، هنا تبدأ رحلتها المنزلية، نفس الخطوات المبرمجة، وكأن أحدهم يضغط على زرٍّ إعادة التشغل كل يوم ويعيد شريط حياتها، حملت صورة كانت قد سقطت من الرفّ لقطة في مكان مثالي لعائلة مثالية، ولكن هل هم هكذا فعلاً ؟

بحثت عن مكان أنسب للصورة حتى لا تقع مجدداً، خطوة إلى الوراء و.....

– بسم الله... أرعبتني، منذ متى وأنت هنا؟

– منذ أن التقطتِ الصورة

– ولِم تتسلل مثل لصٍّ؟ في المرة القادمة حاول أن تصدر صوتا.

تجاوزته وتوجهت نحو الصالة، لحق بها إلى هناك.

كنت أفكر وأنا أطالع وجهك في الصورة، هل ستعودين يوماً ما بذات الدفء؟

اقترب منها محاولاً ضمها تجمدت أوصالها، وتحول جسدها الغضّ

Arab_Books

إلى خشبة قاسية، اعتصرت جفنيها بقوة وأنبتت أظافرها براحتها، وهي تكتـم أنفاسهـا، أبعد جسده عنهـا دون أن ينبس بكلمـة، أغلق الباب خلفه، بقيت جامدة لبرهة، سحبت نفساً عميقاً للتأكد من أن عطره قد غادر المكان لا جسده فقط.

فتحت عينها بهدوء، جلست على الكنبة القريبة ضمَّت الإطار بقوة وكورت جسدها كجنين في رحم أمه.

حـين فزعت من غفوتها كان أول ما بحثـت عنه هو أميال الساعة، ظنت أن النوم قـد سرقها لمدة طويلة، لكن ميل الساعة لم يتحرك كثيراً، شعرت بأنها خرجـت من بئر سحيق تحركت بكسل، حلّت ضفيرتها، مبعـثرة خصلاتها على كتفيها كغجرية تحاول إغواء حبيبها، فهي تضفر خصلاتها يومياً ليلاً، لتكسب بعض التموجات التي لا تدوم طويلاً، فما هـو إلا وقت قصير جداً حتى يعود شعرها إلى طبيعته مسترسلاً كشلال منهمـر بدون أي عقـد أو نتوءات، في أحد أيـام الضجر الماطرة قامت بعدِّ الدقائق التي تحتاجها تلك الشعرات العنيدة لخذلانها ستاً وخمسين دقيقـة بالضبط، ليس بالوقت الطويـل، ولكنها معتادة على ما يحدث، فهي تعلم جيداً أن الخذلان صديق وفيٌ لها لا يستطيع تركها طويلاً.

جمعـت الأطبـاق وهي تفكر بـأي مكونات ستكـون طبخة اليوم فكرت أن تقوم بفتح إحدى مجلدات الطبخ التي تعتلي مكتبتها الصغيرة المعلقـة فوق جدار المطبخ، وقد جربـت كل الأطباق المذكورة في هذه الأوراق، لا بـل أضافـت إليهـا مكوناتهـا الخاصة بهـا، ومزجت بين الأنـواع بخبرة طاه محترف، يعـود الفضل كله لأيام الجوع التي عانتها، تلك التي حولت الطعام إلى هدية تكافئ بها نفسها ومن تحبُّ.

Arab_Books

كانت تشارك تلك التجارب الناجحة أحيانا مع جارتها العجوز التي طالما أحبت العالم الشرقي الساحر، فعلاً إنه ساحر كما تصفه خصوصاً في بلدها الأم، فقدرة الشعب على الحياة في بقعة الأرض تلك تكاد أن تكون ضرباً من الخيال، أو عملاً من أعمال السحر والشعوذة، كثيراً ما فكرت كيف تمكن والدها من إعالتهم وهو ذلك الموظف البسيط الذي كان راتبه لا يتجاوز سعر ثلاثين بيضة وبعض أكياس الخضروات، لم تكن اللحوم متواجدة إلا في وجبات معينة، وغالباً ما تتواجد خلال الأعياد والمناسبات، يتخلى الأب والأم عن حصتهما ليأكل أولادهم الخمسة، والمحظوظ من ينال الحصة الأكبر، عموماً بعد عدة سنين من الوحدة والمشاركة الضئيلة مع العجوز الأجنبية حلّت جارة جديدة على مائدتها، عروس جديدة ذات عشرين ربيعاً، غلفوها مزينة لتُرسل إلى زوجها الذي يكبرها بخمسة عشر عاماً، بثوب أبيض مزكرش بشريط ناعم، أَسّرتها ذات صباح هامسة بخجل، بعد أن طرقت بابها على استحياء (اليوم طلب مني أكلة غريبة لا أظن أن أحداً قد يعلم ماهي مكوناتها غير أمي، لو كانت هنا لسألتها، يريد مني أن أكون مثل أمه وأنا التي انتظرت منه أن يكون أبي الذي حرمتني منه الحروب، كيف لي أن ألد قبل أن أولد؟!) كان سؤالاً ذكياً، ولكنها كانت تمرُّ بحالة من الغباء العاطفي في ذلك الوقت، لذا آثرت أن تجيبها عن مكونات الطبخة القديمة، ففي النهاية طهو الخضار والمرق أسهل بكثير من غلي المشاعر.

وقفت متكئة على جدار المطبخ وهي تنظر نحو الطاولة التي تتوسطه، تمنت أن تتحلى بالشجاعة الكافية لتركها خالية من الطعام حين عودتهم، وأن تأخذ أولادها لأكل وجبة مليئة بالدهون في أحد

Arab_Books

المطاعـم، لعلها تـؤدي إلى امتلاء ابنتهـا النحيفة، وتحقيـق حلم ولدها البسيط، لم تسمح لأولادها أن يأكلوا خارج المنزل أبدا، رغم أن طبيب العائلـة أخبرها بـأن لا ضير من تناول وجبة كهـذه في فترات متباعدة، ولكنها لن تغامر بصحة أولادها، في كل الحالات لا طبيب غير الأم.

وضعت كرات اللحم في القدر وأضافت إليها وريقات الغار المتيبسة وبصلـة مزينة برؤوس القرنفل وعدد من حبـات الهيل وتوجهت نحو الشرفـة، حين بدأت بسقي أصيصـ الزهر المعلق هناك، كانت تتمنى لو أنها تستطيع أن تهدي جذور تلك الزهور تربة أعمق من هذه، ومساحة لا متناهيـة كتلك التـي كانت تملكها في منزلها القـديم، فتمنحها حرية تتمناها لنفسها أيضاً.

أغمضـت عينيها وهي تتنشق عبير الزهـور،، لا عطر يضاهي عطر تلك البيضاء الصغيرة، تلك الزهرة التي رغم ما أهدتها من ألم وذكريات مميتة، إلا أنها تتمنى لو تحظى بنفحة منها تعيد لها طمأنينة منزلها القديم، ولهفـة شوق مصاطب الجامعة، بحثت عنها مطـولاً في جميع المشاتل ومحلات الزهـور، حتى قُتل أملها حين أخبرها أحـد المزارعين بأنها لو كانـت محظوظة بالحصول علـى عقلة لتلك الشجـرة الجميلة فإن مناخ المـكان الـذي تسكنه وتربته لـن يكونا حليفـين لها بـل سيخذلانها، سيموت «الـــــــرازقـــــي» هنا.

بالفعل لن تتحمل زهرة رقيقة أجواء قارصة كهذه.

عادت لمطبخها لتنهي إعداد الغداء بسرعة، عليها التوجه إلى المدرسة ومعرفـة سبب ردة فعل صخـر تجاه الذهاب إلى هنـاك مؤخرا، أزالت اطبقـة الرغوة التي كوّنها غلي اللحم، كم تمنت لو تستطيع كشط بعض

Arab_Books

ذكرياتهـا التي تفسد حياتها كما تكشط الطعـم السيئ هذا، قللت من لهـب الموقد، وتركـت المطبخ لأخذ حمـام سرّيع، بينما تحـدث الغلية الثانية.

حـين أتمـت استعدادها للخروج كان اللحم قـد نضج تماما لا وقت لديها لإتمام الوجبة، أطفأت النار، وتوجهت نحو الباب للخروج.

لم يستجـب الباب لمحاولة فتحه، طلبـت منه أكثر من مرة ترك هذه العـادة (لاحاجة لقفل الأبواب، أترك عـادات السجون هذه، لو كنت أريـد الهروب سأفعلها أمام عينك، ولـن تستطيع إيقافي، ألسنا في بلاد الحرية كما تقول؟).

فتحـت حقيبتهـا باحثـة عـن سلسلـة المفاتيح، سمعـت خطوات تقـترب من الباب، لابد أنه منـدوب لإحدى الشركات أو أحد موزعي الإعلانات المزعجة تلك، أخيراً وجدت المفتاح وأدارته في قفل الباب، ومـا إن فتحته حتى عثرت على علبة صغيرة علّقـت عليها بطاقة بيضاء كتب عليهـا:(زهر الربيع، ليورد خريـف عمرك)...عبارة كهذه تليق بباقة ورد لا بعلبة شوكلا، لن يتقن هذا الرجل فنون العشق أبداً، أهملت ما بداخل العلبة فالعبارة الغبية هذه وحدها كفيلة بإخماد الفضول نحو طعم مـا في العلبة، فتحت هاتفهـا واتصلت به أجابهـا بصوت كئيب وبدون أي مقدمات:

– ماهو السبب، هل أخبرتك المعلمة عما...

قطع جملته بحديث مع موظف آخر.

Arab_Books

توقعـت منه أن يسألها عن الهدية أولاً، هي أدرى بعادة التباهي التي تتملكـه، لم يحدث أن أهدى لها شيئـاً دون أن يتحدث هو عن روعته وأهميته لمـدة أسبوع على الاقل، كأنه يهدي الهدايا لنفسه فيرضي ذاته ويفرحها، وعلى المتلقي دوماً إبداء الدهشة، عموماً هو أكثر من أدهشها في حياتها بمصائبه قبل هداياه.

فتحت باب سيارتها ورمت حقيبتها وأبقت العلبة معها:

– لم أصل بعد.. فقط أردت إخبارك أني قد استلمت العلبة.

أي علبة ؟!

كانت تحاول فتح الشريط بيد واحدة.

– علبة الـــ.....

سقط الهاتف من يدها بعد أن شهقت:

«رازقي»...

Arab_Books

Arab_Books

الفصل الثاني

كان جسدها يهتز بهدوء على العكس من دقات قلبها المتسارعة، لم تتمكن أستيعاب فكرة ما تحويه هذه العلبة المتربعة في أحضانها، حين أغمضت عينيها لوهلة شعرت بتيار كهربائي يسري في عروقها، سحبت نفساً عميقا وبدأت بتلمس الزهرة بحذر كأنها تخاف أن تختفي كالسراب حال ملامستها، رغم برودة الجو ونسيانها لتشغيل التدفئة في السيارة إلا أنها بدأت تشعر بالحرارة كأن جسدها يقدح بشرر، شيء واحد أيقظها مما هي فيه، صوت هاتفها وهو يرن.

– نعم حسام؟

– انقطع الاتصال، عن ماذا كنت تتحدثين لم أفهمك.

– لا شيء أستلمت طرداً، لم يكن لنا، على أي حال سأذهب الآن أراك لاحقاً.

أغلقت الهاتف بسرعة قبل أن يبادرها بسؤال آخر، ويكتشف كذبتها، تلك الكذبة التي لم تعرف لها سبباً سوى احساسها بوجود سر يختفي خلف هذا الطرد، أو لعلها كانت تتمنى وجود سر فعلاً، مماماً كما تمنت أن يكون طريقها إلى مدرسة ولديها أقصر فهي تشعر بأضطراب

Arab_Books

يجتاح جسدهـا، كأن موجة مـن الأدرينالين احتلتهـا فجأة،اختارت اسطوانـة هادئة لتشغيلها علها تهدئ روعهـا قليلاً، الذكريات تتلاحق في رأسهـا بمشاهد سريعة متتابعـة، حديقة منزلها القـديم ،أرجوحتها، دفـتر محاضراتها الداكن وتلك الزهـرة البيضاء التي تركت ثوبها الزاهي وارتـدت ثوباً شاحباً، ولكنه لا يعيبها أبداً بل زادها جمالاً بالنسبة إليها ، ثم ظهرت صورته هو، خُطف قلبها.

ضغطـت علـى الفرامل بقوة وهي ترى امرأة تخـترق قواعد المرور وتعبر من غير الأماكن المخصصة للعبور.

شعـرت بالرعـب والغضب في آن، كانـت تعبر الشـارع مع عربة أطفـال بسرعة وتهـور، كيف لأم أن تكـون طائشة إلى هـذا الحد، ألم تعلمها الأمومة المسؤولية؟!

كم تمنت لو أنها تستطيع مجاراة بعض الأمهات ببرودة أعصابهن، هي تـدرك كم هو مبالغ حرصها على أولادها، ولكـن لا فائدة لن تتغير أبداً رغم إلحاح من حولها ومحاولتهم لأقناعها بالعدول عن تصرفاتها القلقة.

أوقفـت سيارتها في المواقف المخصصه للمدرسة، ولكنها لم تترجل منها مبأشرة فتحـت العلبة من جديد و أستنشقت الرائحة وهي تبتسم، أعادتها الى العلبة وتوجهت إلى مبنى الإدارة.

رحبـت بهـا سكرتـيرة المدير وطلبـت منهـا الانتظار لحـين انتهاء اجتماعه، جلست علـى الكرسي المتكئ على حائط عُلقت عليه الكثير من الصور، وقفت أمامهـا مكتبة مزهوة رفوفها بكؤوس فخرية فازت بهـا المدرسـة في العديد من المهرجانـات والمسابقـات المحلية، تركت

Arab_Books

مكانهـا متوجهةً نحو تلك الرفـوف التي ما إن وصلت إليها حتى ظهر شخص أمامها:

– مرحباً مدام رهف، سعدت برؤيتك.

ابتسمت له بهدوء.

– اهلاً بك وأنا ايضاً.

كان هـذا المعلم هو من أيقن بموهبـة ابنتها الصغيرة في الرسم، وأصر علـى مشاركتها بعدد من الفعاليات الفنية، كانت ود تحبه كثيراً، لدرجة أنها طلبت من أبيها ان يطيل شعره كمعلم الفنون في مدرستها، وبالرغم من دعمه المتواصل لابنتها و سماحته ولطفه، إلا أنها لا تشعر بالارتياح نحـوه، هناك هالة مـن الغموض تلفـه، كان يتصرف دومـا كمن يريد الوصـول إلى شيء، رغم ثقتها بعـدم وجود ما قد يجمعهما في الواقع، عموماً هي تشعر بإضطراب شديد نحوه ولا تفسير لديها لكل هذا.

– ما سبب هذه الزيارة الجملية، هل يمكنني ان أساعدك بشيء ؟.

– الحقيقـة لا أعرف ولكن يبدو أن صخـر يعاني من بعض المشاكل في المدرسة.

– مشاكل ؟؟ مثل ماذا ؟

_ يرفض القدوم ويتحجج بأسباب واهية.

– حسنا ، ولماذا انت في مكتب المدير، سآخذك إلى معلمته مباشرة، ستكون ذات فائدة أكثر لك.

Arab_Books

– ولكن...

– ثقي بي.

أضحكتهـا الجملـة الأخـيرة، ولكنها كتمت ضحكتهـا سراً، فهي لا تثـق بالرجـال مطلقاً ، لم يكـن قراراها هذا بسبـب أحاديث النساء معطوبـات القلوب التي تعرفهن، واللاتي لبسـن أثواب الخذلان علناً، دون ان يشعـرن بالخـزي من موقـف الغباء المحرج الـذي زججن به، فتراهن يتباهين بآلامهن، ويتنافسن بإظهار عمق جروحهن، وهن يصفن سكاكينهـن المؤذية تلـك، لم تكن فخورة كما هـو حالهن، ربما كانت تائهة جداً ولكنها علـى الأقل تعلم أن أهم خطوات العلاج الفعالة هي أن تعالـج نفسك بنفسك بعيداً عن الكلمـات المؤاسية والحلول المتأكلة الكرامة.

كل ما في الامر انها لم يحدث ان ألتقت برجل يثبت لها أن الرجولة فكرة حقيقية وليست خرافة أو إحدى نتاجات كتب الفلسفة.

حين فتـح مُهلب بـاب المكتب ابتسمـت المعلمة، وأشـارت لهما بالجلوس، كانت في نهاية العشرينيات مـن عمرها إمرأة بجمال هادئ كما هـي ألوان شالها الحريـري الذي يغطي رأسهـا، أصرت رهف أن يكـون تعليم أبنائها في هـذه المدرسة بالذات، التي تمتـاز بكثرة الجالية العربيـة والمسلمة فيهـا بشكل عام، يكفـي الأولاد ابتعادهم عن لغتهم وعاداتهم بسبب نشأتهم في الغربة.

– مدام رهف ، نهى هي المعلمة الجديدة لصخر.

Arab_Books

– أهلاً وسهلاً.

كانت تشعر بتشتت شديد ونسيت لوهلة سبب تواجدها هنا، وبخت نفسها وأبعدت جميع الإفكار التي تجتاح تفكيرها الآن، فلا شيء أهم من أولادها أبداً.

– لن أطيل، سأدخل في صلب الموضوع مباشرة، في الآونة الأخيرة تنبهت لوجود تغير في تصرفات ابني صخر، فهو يحاول بكل جهده التهرب من القدوم إلى المدرسة، يخترع الأعذار ويحاول إقناعي بها...

قاطعتها مبتسمة:

– بصراحة، أتمنى أن تكون ملاحظات جميع الأهالي لأي تغير يحدث على سلوك أولادهم بهذه السرعة، اليوم بالذات كنت أنوي الاتصال بك لهذا السبب.

– كلامك يزيد من حدة توتري، أتمنى أن ندخل مباشرة إلى الموضوع بدون مقدمات.

كان ردها حاداً جداً، ولكنها وجدت لنفسها العذر، أحد ابنيها هو محور الحديث، لا مجال للمجاملات و إطالة الكلام.

– يبدو أنك متوترة جداً، الموضوع أبسط مما تظنين، هي مجرد تصرفات هوجاء من أطفال صغار، ولكن ما أثار استغرابي حقا هو ما قاله صخر عن لسان والده، فبدت علامات التساؤل جلية على وجه رهف:

Arab_Books

– ما الذي قاله ؟؟ هل لي أن أعرف ؟؟

قـام مهلب مـن مكانه مستعـداً لترك الغرفـة متذرعـاً بأعمال عليه إتمامها.

– مـدام رهف سأكون ممتنـاً جداً إن مررت بـي قبل خروجك من المدرسة.

أومأت برأسها بدون تركيز حقيقي منها.

ما أن خرج مغلقاً الباب وراءه حتى عادت المعلمة إلى الحديث ولكن بنبرة جدية أكثر:

– كان صخـر يحذر صديقه من دخوله النار، وهو يصف عذابها له مما أدخل الطفل بحالة بكاء طويلة، ودفعه أيضا إلى مقاطعة ولدك وحث باقي اصدقائه على عمل المثل.

– ومـا الذي جعل صخر يظن أن صديقـه سيدخل النار.. لا بد أنه كذب عليه بشيء ما

– للأسف مدام رهف ليس هذا هو السبب...

شعرت بتوتر وصداع قـوي ومفاجيء، أخرجت حبتي مهدئ من حقيبتها وابتلعتهما دون طلب كأس من الماء.

– إحذري مدام هذه العادة مضرة جداً.. لدي زجاجة مياه هنا

– أرجوك تابعي مشكلة صخر...

Arab_Books

اهتزاز ساقيها، وتغير ألوان وجهها أثارا قلق المعلمة جداً.

– أفضّـل أن نتحدث لاحقـاً بعد أن تهدئي قليلا، مـا رأيك بكأس عصير أو قهوة مثلاً ؟

– أنـا بأفضل حـال تابعي أرجوك، ولاحظي كونـك تتحدثين عن ولـدي وبموضوع حساس جداً لهـذا أرجو منكِ الإسراع بالحديث فلا صبر لدي..

– بكل الأحوال لن يفيدنا الحديث وأنتِ بحالة كهذه.

ضغطت على صدغيها، بدأ وجهها بالاحمرار.

– آنسة نهى أرجو أن تستمري بالحديث.

– وأنتِ بهذه الحالة!.. أنا آسفة.

نهضت رهف من مكانها بانفعال، ضربت الطاولة بقوة:

– بـرود الأجانب هـذا، آنستي الفاضلة، لا يليـق بك، نحن عرب فتعاملـي معـي على هـذا الإساس أو إخلعـي هذا الذي فـوق رأسك وأصبغي شعرك باللون الأشقر

فتح الباب..حيث كان يختبئ خلفه.

– مدام رهف.

تركت المكان وتعالى صوتها وهي تخرج قائلة

Arab_Books

– سيكون لي تعامل آخر...

لم تأبه بلحاق مهلب بها، ما أن ركبت سيارتها حتى انطلقت بسرعة.

التفت مُهلب نحو نهى التي لحقته إلى بوابة المدرسة، قالت بهدوء:

– لا عجب أن يكون ولدها مضطرباً إلى هذا الحد.

كانت بحاجة لأن تهدأ بالفعل، أوقفت السيارة على جانب الطريق، فتحت العلبة مجدداً، استنشقت شذاها وبدأت دموعها بالانهمار، عادت إلى هناك، إلى تلك المواقف والأماكن والأسماء، التي خبأتها تحت كومة من الأيـام والسنين، إلى حديقـة فقيرة كانت تظنها جنـة على الأرض، وإلى عاشق تصورت يوماً أن العشق خلق لأجله، ووطن خدعت بأمجاده وألفت خداعه، هي التي لم تعرف سوى حب المخادعين.

سمعـت طرقـا عنيفا على زجـاج السيارة أعادهـا إلى واقعها، كان الشرطي المائل أمامها يبدو قلقاً بالفعل:

– هل هناك خطب ما سيدتي، هل تشعرين بوعكة؟

– لا، شكراً لك.

– أنـت تقفـين منذ مـدة هنا، وهذا المـكان غير مخصص للوقوف الطويل.

– احتجت إلى الراحة قليلا، عموماً سأكمل مسيري الآن.

– سأكون خلفك حتى تصلي وجهتك.

Arab_Books

– لا حاجة صدقني.

– أسمحي لي، هذا واجبي.

ابتسمت له وأغلقت نافذتها، كانت تدرك أن كثر رفضها سيثير شكوكه، فاستسلمت لرغبته في النهاية.

حين وصلت شقتها، وقفت قليلا أمام الباب لَم لاتتحدث الأخشاب، كانت لتخبرها على الأقل من قام بوضع العلبة هنا، ما إن أدخلت المفتاح في قفل الباب حتى ظهرت جارتها، خبأت العلبة مباشرة في حقيبة يدها كإثم لا تريد أن يكتشفه أحد، قالت العجوز بقلق:

– أين كنتِ قلقت عليك، طرقت الباب مراراً، خبزت كعكتك المفضلة كانت ساخنة، بردت الآن لن تحبيها باردة، الين أبنتي أيضاً لا تحبها إلا ساخنة، اقتربت منها مقبلةً يدها، تحب هذه الجارة الثرثارة الوحيدة، فهي تذكرها بوالدتها:

– أحب منك كل شيء، ألم تخبزيها بحب؟ ستبقى ساخنة إذاً، سأحضر الشاي العراقي الذي تحبين، وأنتظر الكعكة بفارغ الصبر.. لم أتناول أي شيء منذ عشاء البارحة.

ابتسمت الجارة بود ودخلت شقتها.

علب الشاي التي وصلتها من أرض الوطن شارفت على الانتهاء، فبدأت بمعاملتها ككنز مندثر، قطعة أنتيك تحتفظ بها ولا تقوم بعرضها سوى أمام متذوقي جمالها.

Arab_Books

وأهـم المتذوقين جارتهـا الأجنبية هـذه، فتح هذا السائـل الأسود المعطـر أبـواب حوارات طويلة حـول ثقافة بلدها الـذي كان يوصف بمرتع الإرهاب والمصدر الأول للأذى،استعرضت ذاكرة الوطن الجميلة أمامها، حرصـت على أن تستمع جارتها لموسيقاهـم، قالت لها يوماً: لشعبكم ميزة خاصة بتحويل الحزن إلى لغة رنانة وعذبة.

هـذا ما علقت بـه بعد أن استعرضت أمامهـا مجموعة من اللوحات بمصاحبـة عزف القانـون والعود، فعلاً علمتها الغربـة أن الوجع داخل الوطـن عذب أكثر، إنه محتملٌ قابلٌ للابتلاع لا يقف كغصة تمنعك حتى مـن التنفس، علـى الأقل هناك كفُّ أمك، صـوت أخوتك، بل وحتى صـوت مفاتيح والدك مساءً، وهو يقفل باب المنزل، ذلك الأمان الذي لن تشعر بمثيل له حتى لو أحطت ذاتك بكل أقفال الدنيا، فالغربة تعريك من ذاتك، تلك أول شروطها لتقبلك.

– رهف.. أين انتِ يا صغيرتي؟

– اااااااه، بسم الله.

– آسفـة لا بـد أني أرعبتـك، أنت من ترك البـاب مفتوحاً فدخلت مباشرة، أعتذر بشدة.

– لا عليكِ أبداً إنه خطأي أنا، أفتقد لتركيزي اليوم.

أجابت وهي تغسل إصبعها الذي جرحته خاطئة.

– كنت أعدّ السلطة، الحمدلله لم ألوثها بدمي، جهز الشاي انتظريني في الشرفة سألحق بك.

Arab_Books

كانـت تضحك كثيراً لتسمية ذلك البـزوغ الصغير بالشرفة، عموماً فهـي واحدة من كذباتهـا الصغيرة التي تعينها علـى تحمل واقعها هذا، كانت كذبات متقنة فقد أجادت صنع عالم جميل هناك، سجادة خضراء تشبه العشب، كرسيان صغـيران تتوسطهما طاولة خشبية وقفص لطير لا وجود لـه، أحبت القفص فاشترته. كثيراً ما نعتهـا زوجها بالجنون بسببـه: – ما الفائدة من شرائـه وأنتِ ترفضـين أن يسكنه أي نوع من أنواع الطيور؟

امتنعـت عن الإجابة، بكل الحـالات لن يفهمها هـو من يستعذب القيود، حتى باتت جزءاً منه فهو يقيد ذاته، وكل ما يعود له.

– سأشغل الموسيقى، هل تودين سماع شيء معين؟

– نعم، ذلك المغني الذي سألتك عنه آخر مرة.

ضحكـت بصوت خافت، وأسرت داخلها (هـذه العجوز بذاكرة حديدية، أعانها الله عليها).

هـدل صوت ناظم الغزالي في أنحاء الشقة، وهو يغني معاتباً محبوبه(يا ابن الحموله.. عليّ شبدلك)

وبـدأت بالترجمة كالعادة، لكنها وقفت حائرة عند الوصف الأول كيـف ستترجمها لتلك العجوز، وهل يوجـد أصعب من ترجمة خيال شاعرٍ عراقي.

حين عاد الطفلان إلى المنزل كانت قد أنهت إعداد الغداء للتو.

Arab_Books

قال صخر متذمراً:

Mom im hungry

– الطعام جاهز غيروا ملابسكم و.....

قالت ودّ وهي تتقافز حولها بمرح مقلدة صوت والدتها:

– اغسلوا وجوهكم وأيديكم جيداً، وهاتفوا أباكم للتأكد من قدومه.

ضحكت من القلب وقبلت خديها بحبّ.

– لا حاجة للاتصال، وصلت منذ مدة.

قالها حسام وهو يتكىء على باب المطبخ.

– حسناً، قم أنت أيضاً بذات الخطوات، وسيكون كل شيء جاهزاً حال انتهائكم.

– لن آكل معكم، كنت في غداء عمل اليوم، أعاني من صداع سأخلد للنوم.

ترك المطبخ متوجهاً نحو غرفة المعيشة.

– رهف، تركت حبوب المسكّن على الطاولة صباحاً أين أجدها ؟

لم تجبه، صوت المياه منعها من سماعه، وهي تعيد غسل الأكواب والملاعق قبل استخدامها.

Arab_Books

– رهف، سألتك عن الدواء.

أشارت له نحو الصالة دون أن تنبس بكلمة.

– لم تلفين إصبعك؟

اقترب ماسكاً يدها، فسحبتها بقوة.

– لا شيء مجرد جرح صغير، ستجد الدواء في حقيبتي أخذته صباحاً معي.

تركها وعلى وجهه ملامح الحنق.

كانـت تنشف يدها حين تذكرت العلبـة، تركت المنشفة وتوجهت نحوه وقبل أن تصله.

صاح بصوتٍ متوتر:

– رهف..

Arab_Books

Arab_Books

الـفصـل الثالث

كان قـد بعثر كل محتويات الحقيبة على الطاولة، وهو يتمتم بكلمات معترضة

– لم انـتِ بحاجة لأخـذ كل هذه الاغراض معـك، عطر، أدوات تجميل،

شاحن، دفتر وثلاثة أقلام بل اربعة، بالله هل انتِ بحاجة لكل هذا؟

حمدت الله على كونه لم ينتبه للعلبة، اقتربت منه بسرعة.

– لا حاجـة لكل هذا الصراخ، ها هو الـدواء، تستطيع إيجاد كأس ماء أم يصعب عليك هذا أيضا؟

انسحـب تاركاً كل شيء مبعثراً خلفه، عمومـاً هي إحدى عاداته، ولكنها تحمد الله عليها للمرة الأولى، كانت العلبة هي أول ما أعادته إلى الحقيبـة، تركتها نصف مفتوحة، تُطلّ من زاويتها المنفرجة ورقة بيضاء لم تنتبـه لوجودها من قبل، ترددت لبرهة في فتحهـا ما أرعبها حقاً أن تقـرأ اسماً أو عنوانا، أن لا يكون وصـول هذا الطرد محض صدفة، أن يكون المرسلُ ماضيها، ولكنها تجد في ذات الوقت أنه من المؤلم لها ان تكون الماثلة أمامها غلطة مندوب توصيل، ما الذي تريده الآن، هي لا

Arab_Books

تعـرف ولا تملك الشجاعة لمعرفة ما تريده أو مجـرد أن تقف أمام المرآة لتسأل ذاتها هذا السؤال، الذي كفَّت عن ترديده منذ أول صرخة طلق بصخـر، تلاشت هذه الحروف الثمانية شيئـا فشيئا مع كل يوم أمومة، حتى ذلك اليوم الذي استعدت به لترك المنزل حازمة حقائبها واختناق ودّ لحظة وداع والدها، تلك اللحظة فقط أسقطت حرف الدال الأخير بالجملـة، تلك اللحظة التي سلبت ضمـير المتكلم منها، منذ ذاك الحين وهـي تستخدم ضمائـر الجمع، وتعريف ذاتها بصفـة الأمومة، لم تعد رهـف بل هي أم صخر، ثلاثة حروف سلبـت منها رومانسية اسمها، عمومـاً هي تؤمن أن لكل شخص مـن اسمه نصيباً، وبكل الحالات لم يعـد اسم كهذا يليق بها، ورغم كـون زوجها هو من اختار هذا الاسم لولده البكر كما يقول وترك لزوجته تسمية الطفلة إلا أنها تشعر بالقوة وهـي تنسب اسـم طفلها لها كأنه صخـرة بالفعل تستنـد عليها حين تخور قواها.

– ماما أنا جائعة.

– آسفة ياصغيرتي، اجلسي على الطاولة أنا قادمة حالاً.

لم تأكل فعلياً خلال وجبة الغداء، قد تكون كعكة الجارة هي السبب، تلـك العجوز هي الفرد الوحيد الـذي استطاعت التواصل معه من هذا البلـد، لم تكـن اللغة هي الحاجز كما هو حـال أغلب المهاجرين هنا بل اختلاف بل الثقافة والجذور، تلك الجذور التي أرقتها كثيراً ومنعتها من الاندماج مع واقعها الجديد:

– تشبهـين القنفذ كثيرا، عندما يقترب منـك أحد تتكورين مظهرة أشواكك.

Arab_Books

تردد صـدى صوت حسام، وهو يردد كلماته المأثورة هذه، هو من وهبها الأشواك، نبتت على جلدها بفضله اقتات على دمائها وخياناته، هـي من وصفت في يوم كزهرة ملساء باهية، تُرى أتتغير الصفات نسبة للموصوف، أم الواصف؟.

حاولـت أن تستوعب الحضارة الجديـدة التي فرضت عليها، اللغة، العادات، حتى وجبات الطعام واستبدال كأس الشاي بقهوة بلا ملامح ولا آثار تهبك قراءة المستقبل، ولا تترك آمالاً وأحلاما، كل شيء جميل هنا كحلم، لكنه بلا أثر كحلـم قيلولة قصيرة، وهي امرأة اعتادت على الأحـلام التي تصحـو منها شاهقة بفـرح أو دموع، سأعتـاد وأنسى، كثيرا ما وعدت ذاتها بهذا، إلا أن نسيان ذلك الوطن بات أشبه بالمهمة المستحيلـة، رغـم حنقها علـى كل تفاصيله واستحالـة فهمه، تذكرت فجـأة زميلهـا في صف الفلسفـة، كانت من شروط قبولهـا الهجرة أن تنهـي دراستها لم يعارض حسام إطلاقاً، فلم يكونا ينويان إنجاب أطفال في تلـك المرحلة من حياتهما، وكان هو مشغولاً بتأسيس عمله الخاص فبدا هذا الحل الأنسب بالنسبة له، لضمان انشغالها وعدم مرورها بفترة الحنين المرضي للوطن وعائلتها، اختارت الفلسفة لطالما حلمت بدخول هـذا التخصص، أجابهـا والدها حين أخبرته بنيتهـا: – نحن العراقيين انخلقنا فلاسفة، لاتحتاجين لدراسة الفلسفة، اشربي استكانة شاي مخدّر تعطيـك الأفكار التي تهز عرش سقراط وافلاطون، يابنتي لا أحد يغامر بالزواج من بنت دارسة فلسفة تخرب كل أفكاره وتصدع رأسه.

وأنتِ يا أم فراس أنصحي ابنتك ؟

ندبـت والدتهـا أم فراس القلقة حظهـا أسبوعا كامـلاً، وهي تردد

Arab_Books

كلمات والدها المتخوفة من عدم زواجها، فنوع الشهادة ميزة للعروس ولكـن مـاذا تضيـف الفلسفـة إلى ابنة الأسـرة الفقيرة التي تنـام برفقة أخواتهـا الخمسة في غرفة المعيشـة ليلاً، فلا يوجد سوى غرفتي نوم في ذلـك المنزل الضيق، يضطجع الوالدان بواحدة، بينما ينام أخوها فراس في الغرفة الأخرى وحده، فنوم الأخت وأخيها في غرفة واحدة «عيب وحرام» في دستور والدتها المستمد من العادات وكلام الجدة.

لم يكـن الفقـر وحده ما يقلـل حظوتهـا، فسمارهـا ونحولها من المتآمريـن أيضاً على مصيرهـا، بحسب نظرية والدتهـا التي طلبت من أختها صفعها وقرصها على خديها، قبل يوم خطوبتها، عسى أن يتورد خدُّها، وتنال إعجاب والدة العريس.

انصاعـت لرغبتهـم لم تؤثـر على قسـم الفلسفة في ورقـة التقديم الجامعية اختـارت مجموعة من الأقسـام التي تؤهلهـا لإعطاء الدروس الخصوصية، فاختارها قسم التاريخ، لم يعنِ لها هذا الكثير على كل حال فهي مؤمنة بأن الأقدار هي من تختارنا لا العكس، هذا ما حتمه واقعها وهذه طريقتها لفلسفة خياراتها التي فرضت عليها، سعد والداها كثيرا، ستكون معلمة، سيأتي الطلاب سائلين عن الدروس الخصوصية، وهذا مـورد إضافي للمنزل، سيكونون ممتنين إن تحملت مصروفها الشخصي وواحدة من أخواتها على الأقل، تبخرت جميع هذه الأحلام، على كل حـال فهي لم تنهِ دراسة التاريخ، وتركـت الفلسفة أيضا، والسبب كان سؤالاً صغيراً طرحه أستاذها عليها:

– لماذا اخترت الفلسفلة يا رهف؟

– أحتـاج للأجوبـة، لا أظـن أن هنـاك مـا قـد ينقذني مـن دوامة

Arab_Books

التسـاؤلات غيرها، منذ بدايات شبابي وأنا أرغب بها زاد احتياجي لها بعـد كل ما حـدث في أرضي، ابتسـم يومها بهـدوء لم تعهده إلا حين وطأت أقدامها هذا البلد.

– فلسفة الأمور لاتحتاج إلى دراسة كتب تترهل من ثقل سطورها... ولا إلى كلمـات يفسرها علماء لغة فقط.. يكفيـك كوب من القهوة.. عقل متقد يسمح لك بإرجاع الأمور إلى أصولها.. وعكس ما يحدث في اتجاهـات أخـرى... في أصعـب الحـالات ستحتاجـين إلى كوب اضـافي ودخان سيجارة، وسأكفل لك حـل جميع مشاكلك العالقة.. إلا مشاكل الوطن هنا ستحتاجين إلى قنينة من مشروب روحي يعوضك عـن روحك التي سلبت في تلك الأرض.. وبأقصى الحالات إلى سكين لقطع شريانك الوحيد الذي لم يقطع هناك.

شريانهـا الـذي ودَّت أن تقطعه، مائة مرة لكنهـا كانت تتذكر قول درويش: (لأني إذا مـت أخجل من دمع أمي)، كانت تخجل أن تكون سبـب دمعة أخرى لتلك العين المتعبة، هـي تخجل أيضا من الموت فهو رفاهية مبكرة لها، راحة لم يسبق لها أن جربت مثيلاتها.

أتمت تلميع المطبخ، يبدو أنها قد مسحت الطاولة مرتين، هذا ماقالته ودّ لها حينما طلبت منها حمل دفتر الرسم والألوان والذهاب لغرفتها، اقتربت منها بدلال:

– ماما لماذا أنت حزينة اليوم؟

صدمت لسؤال ابنتها، أهي حزينة فعلاً؟ مالذي يحدث؟ ألم تقطع على ذاتها عهداً أن لا يؤثر بها شيء؟ أن لا يراها الأطفال بحالة عاطفية

Arab_Books

تعبـة، كيف لعلبة صغيرة أن تغير كل شيء فجأة، خطر لها أنها نسيت أن تطلـب من حسام زيـارة مدرسة ولديهما غـداً، أم من الأفضل أن تذهب بنفسها وتصحح موقف اليوم الانفعالي، كان تصرفاً غبياً عليها أن تعـترف بهذا، تقريـر واحد ترفعه هذه المدرسة قـد يدخلها بحلقة مـن التساؤلات بـل والتحقيقات والشكـوك حول أهليتهـا لحضانة أولادهـا، هـذه البـلاد المجنونة التي قـد تحرمك مـن أولادك بأبسط شكـوى، تحرمك من أحقية تأنيبهـم أو تربيتهم كما تربيت، ابتسمت وهـي تتخيل ما مصير والديهـا لو سكنا على هـذه الأرض، هل كان سيحكـم عليهـم بإبعادهم عن أولادهم أم السجـن؟ قد يكون الحكم مؤبـدا، خصوصا حين كانت والدتها ترمي ملعقة سكب الطعام على بناتهـا لحـل نزاعاتهن على قطعـة ملابس أو لعبة، لـن تغامر الآن بعد كل التضحيـات التي قدمتها؛ كي لا تُبعد عنهما، ستتوجه غداً لمدرسة الأولاد قـد يكـون من الأنسـب أن تتحدث مع مهلـب أولاً لابد أن المعلمـة قد أخبرته شيئاً، تذكرت تنصته، بكل الحالات فقد يكون هذا لصالحها، علّه يكون وسيطاً بينهما.

الساعـة الان تشير إلى الثامنة، إنه وقت خلـود الأطفال إلى الفراش لا يـزال حسام نائماً يقلقها هذا جـداً، سيسهر الليل كله ما يعني انعدام خصوصيتهـا، أيضاً سيستعر الفراش، لن يرحمها من محاولاته بممارسته العـذاب معها فتسمية الحب قديمـة جداً وما عادت تصـف ما بينهما، لم يجمعهمـا يوماً العشق، ذلك اللهيب المشتعـل، لا ينفع أن يعاش مع شخصية مثـل حسام، اكتفت بالاعتياد عليـه، بالشعور بالعرفان نحوه والتقبل، كان كل شيء دافئاً لدرجة تسمح بضخ الدم في عروقها المتيبسة حرمانا وألماً، حين رفضت الزواج منه في البداية نصحتها صديقتها:

Arab_Books

لا تكوني غبية، لن يمنحك حبك لزاهد جوازاً أجنبياً، لن يخرجك من منزل والدك المتقاعد الذي بات يكتظ بكم، لم تعد أجسادكم صغيرة يا رهف، كبرتم وكبرت الهموم معكم، ارحمي والديك، ثم لنفترض أن زاهد استطاع أن يتغلب على كل الرفض المحيط بكم وكل الحواجز الدينية والاجتماعية، هل ستتمكنين أنت من التعايش مع شخصيته الجديدة التي ظهرت أمامك، هل ستنسين ما مررت به في الموقف الأخير معه، رهف أنت شكوت كثيرا من إزدواجية تفكيره، لن يتغير زاهد في يوم هو الذي نشأ في بيئة دينية وأجبر على دراسة الشريعة لكنه ينهي قنينة مشروب كاملة في ذلك الملهى الليلي كل ليلة، حين تكونين زوجة لزاهد لن تفرق حياتك شيئا عن حياة شقيقاته اللاتي كنت تشفقين عليهن، كل هذه الفرضيات الصغيرة تبعدك عنه، هذه التفاصيل هي ما عرفتها منك، وهي كافية لفهم لمَ يستحيل الزواج بينكما، أليست هذه جملتك الاكثر ترديداً يا صديقتي؟.

غفا الصغيران على ساقيها، بعدما كانا يشاهدان التلفاز، هذه هي طريقتهم المثلى دوماً لإنهاء اليوم، تجلس وسط الأريكة الكبيرة، تتوسد ودٌ ساقها الأيمن وصخر الأيسر، كانت تشبههم برئتيها.

طلبت من حسام المتوسد على الأريكة المقابلة للتلفاز مساعدتها على حمل صخر لفراشه، بينما تحملُ هي الصغيرة، كان متعكر المزاج ولا يزال يشكو من رأسه فطلب منها التريث قليلاً ونقلهم لاحقاً.

لم تجادله كعادتها، نحَت رأسيهما عنها، حملت صخرا وتوجهت نحو سريره، بينما كانت تتأكد من غطائه دخل حاملاً ودّا أدخلها الفراش سريعاً واقترب منها هامساً

Arab_Books

– ماذا لو حملتك أنتِ أيضاً نحو الفراش ألن يكون هذا رائعاً أيضاً؟

حـين أغمضت عينها بغضب ظـن بأنها علامة موافقـة حملها بين ذراعيـه بسرعه، لم تستطع الصراخ كي لا توقظ الأطفال، قربت شفتيها من أذنه:

– أفلتني حالاً.

– يثيرني صوتك الهامس، سأفلتك حبيبتي ولكن على فراشنا.

– ستجبرني على إيقاظ الأطفال.

– سأسكتك بطريقتي.

– حس.....

لثـم شفتيها بقبلة، فحركت ساقها بقـوة، أنزلها نحو الأرض، دون أن تعقب بكلمة توجهت نحو الغرفة أخرجت غطاءً ووسادة تركتها في غرفة المعيشة وعادت لفراشها مقفلة الباب خلفها بالمفتاح.

مرَّ قرب الباب وقال هامساً:

– ستتسببين بخيانتي لكِ.

– وكأنـك ستفعلها للمرة الأولى، سعيـدة لأجلك، تملك سبباً على الأقل هذه المرة.

Arab_Books

توجهت نحو الحمام أمّت وضوءها واستعدت لقضاء الليل مع حبها الأوحد، هكذا تحب أن تصف الله دوماً.

لكن زوجهـا الذي لا يدخر طريقة لاستفزازهـا اعترض حتى على علاقاتها الروحية بالرب:

– أنتِ تعانين مـن إزدواجية حقيقية، تصومـين كل هذه الساعات الطويلة، تقضـين ليلك بالعبادة والتهجد ثم تخرجـين صباحاً بسروال ضيق وشعر مكشوف متمايل مع جسدك.

لم تهمها يومـاً تعليقاته، تركت خرقة الرأس تلك عن قناعة عميقة ومؤلمة، هي لم تكن تمـتُّ إلى الدين بصلة وقت ارتدائها، كانت واحدة من حتميـات المجتمع كونها ابنة منطقة شعبية تجـد من السافرة عارية، وحبيبـة رجل يدعي الغـيرة على العرض والدين، ذلـك الدين الذي لم تفهمه سوى حين ابتعدت عن مرتعه، هي اليوم أقرب إلى الـله، بل حتى محبوبة منه أكثر.

بـدأت تشعر في الآونة الأخيرة أنها مدللته، هي التي لم تفقه للدلال معنى من قبل.

لم تطل صلاتها، اختصرت أدعيتها الليلة، لم تخص المقربين فرداً فرداً ولا أولئـك الذين تضمهم قائمتها كل مساء، فكرها مشوش جداً، تلك الورقة البيضاء الصغيرة تسرق تركيزها، فكرت بإتلافها قبل قراءتها:

ولكن هل تملك شجاعة حقيقية كهذه؟

اقتربـت من خزانتها التي أخفـت فيها العلبة، استلتهـا بيد مرتجفة،

Arab_Books

بـدأت تشعر بـأن قلبها ينبض داخـل أذنيها، ضجيـج الدقات زاد من تشوشها، تجاهلت وجود الزهرة، فتحت الورقة مباشرة.

-أتحبين الأحاجي؟!

زاد فضولهـا، بدا لها أن المرسل يخطط لشيء ما، أي أحجية هذه؟، نظرت نحو السماء داعية.

- يا الـله أنا مدللتك، فلا تعذبني.

Arab_Books

الفصل الرابع

ملأت كوبها المفضل بالشاي، أغلقته بإحكام وقوة، كانت تتمنى لو أنها تملك شبيهتها لغلق بوابة ذكرياتها التي فتحت على مصراعيها، بعد أن استلمت تلك العلبة.

لم تهنأ بنوم جيد ليلة أمس، رسمت عدداً كبيراً من الاحتمالات المتوقعة، ما نسبة أن تكون يد زاهد هي من وضعت العلبة أمام المنزل؟، ماذا عن حسام؟

فهو يحاول باستمرار كسب ودها بعد ما حدث، خصوصاً وهي ممتنع عن معاشرته منذ مدة طويلة، هل أدى فقدانه الصبر إلى تحويله إلى رجل ذي عاطفة متقدة؟

لو كان الامر عائداله لاكتفى بعقد أو أسورة، وفي حال مختلف عن الآن لأهدى لها تذكرة سفر لزيارة عائلتها، ولكنه يخاف أن تكون تذكرة بلا عودة هذه المرة.

أطلت بنظرة تفقدية أخيرة على المنزل قبل الخروج، كل شيء منظم وفي مكانه كالمعتاد، المنزل معطر بشكل جيد الموقد مطفأ، توقفت أمام مقبض الباب لوهلة،

Arab_Books

تحـول لحن قلبها لقـرع طبول حرب تأمل أن تجـد ذات العلبة اليوم أيضـاً، حين تفقدت العتبـة صباحاً قبل أن تسمـح لأولادها بالخروج، كانت خالية تماماً.

لا بد أنه لم يشأ أن يتسبب بإحراجها في هذا الوقت المكبر خصوصا مع خروج أولادها وزوجها، لن يتسبب لها بمشكلة عائلية أبداً، هزأت مـن تفكيرها، تتعامـل بجدية من طرد قد يكون وصـل إليها عن طريق الخطأ، أيضاً ثقتها بأن المرسل زاهد، كيف له أن يعرف عنوانها أساسا؟!

نفضت الأفكار عنها، تحلـت ببعض الشجاعة أدارت مقبض الباب بهـدوء وحذر كأنها تفتـح إحدى بوابات القدر، أنزلـت مقلتيها نحو الأرض مباشرة.

– لا شيء لا شيء، أي حمقاء أنا؟

– تحدثين نفسك؟؟

كادت أن تفقـد أنفاسها، رفعت عينيها، وجـدت جارتها العروس الصغيرة تقف أمامها مبتسمة:

– يبدو أنك أضعتِ شيئاً، ما هو سأساعدك بالبحث عنه؟

لا شيء، أضاعت أملاً فقط، كيف لها أن تجده تلك المسكينة التي لا تعرف حتى معنى له.

– لا شـيء مهماً، أضعت حلَقاً ليلة أمس، وظننت أني قد أجده عند العتبة.

Arab_Books

– أهو باهظ الثمن؟

ابتسمت نصف ابتسامة.

– لا تقلقي كان مزيفاً على أي حال

ككل آمالي همست معقبة بصوت اقرب لدبيب نملة...

– يبدو أنـك مستعدة للخروج، جئت لدعوتـك لمشاركتي فنجان قهوة صباحية، مع صوت فيروز الذي تعشقين.

– كنت أتمنى أن أشـاركك صفاءك عزيزتي ولكن عليَّ الذهاب إلى مدرسة الأولاد.

– هل من خطب؟

– إلى الان لا شيء حقيقياً، قد يكون شقاوة أطفال ودلعاً فقط.

ابتسمـت الصغـيرة بإشراق، تبـدو كالشمس تمامـاً بشالها الأبيض الذي لا يتغير لونه أبدا، كان وجهها يتبارى معه بالنقاء وصفاء اللون.

– أنتظرك غداً صباحاً إذاً، ولا مجال للاعتذار هذه المرة.

– مؤكد يا صغيريتي مؤكد.

لم يكـن فارق العمـر بينهما كبيراً جدا، كانـت تصغرها باثني عشر عامـاً فقط، ذات العمـر الذي يفصلها عن أختها الصغـرى، وهو أيضاً نفـس عمر قريبتها التي سرقت استقـرار منزلها لفترة من الزمن، إلا أنها تشعـر كأنهن بناتهـا، تشعر بأمومة عميقة نحوهـن، هذا السبب الذي سمح لها بمسامحة قريبتها على تلاعبها مع حسام.

Arab_Books

في طريقها نحو المدرسة لفت انتباهها حبيبان يتوجهان نحو الثانوية القريبـة، كان يمسك بيدها بكل ثقة لا شيء يخيفهما بالطبع فالحب هنا ليـس بالجريمة التي تستحق الإنكار والإخفـاء، هو شيء بديهي واجب الحـدوث وفي حال غيابه يبدأ الذعر بالحضور، ذات الذعر الذي يظهر وقت قدومه في مجتمعها.

دون تفكـير مسبـق تتبعتهما، أوقفت السيارة أمـام المدرسة، كانت أقـرب لشكل الجامعات في بلدها الأم، خصوصاً مع توافر الطلاب من الجنسين معاً، ذلك الالتقاء الذي لم يكن ليتاح لهما إلا بعد إتمام عامهما الثامـن عشر، فترى بوابة الجامعة هـي أقصى طموح المراهقين هناك، لا لأجـل مستقبل وضمـان اجتماعي وثقافي ووظيفـي معين، فقط لترى الآخر دون أن تكون تحت مساءلة وشكوك العائلة والمجتمع، لتتحدث بعينـك كما تشـاء وتجرب مسكة اليـد وارتعاشة العشـق الخفية، حين خطت بوابة الأحلام تلك لم تكن تأمل بتأبط حبيب، فقد جربت الحب الأول و تذوقـت القبلة الأولى، وعرفت المواعيـد الخفية خلف أشجار بيـت العائلة الكبير بعد أن ينام الجميـع، رغم هذا ورغم عدم التخطيط المسبـق إلا أن الفصـل الأول لهـا في ذلك المبنى الهائـل نسبة لجسدها الضئيل حمل لها ما لم يكن في الحسبان.

أعادت تشغيل السيـارة وأكملت مسيرها، فكرت مطولاً ليلة أمس بعـذر مناسب لما بـدر منها مع تلك المعلمة المسكينـة، ارتأت أن تتوجه أولا لمهلـب رغـم عدم ثقتهـا بصاحب الجديلة هـذا إلا إنها مجبرة على التعامل معه عليها أن تتحمل نتيجة خطئها الفادح.

طلبت من موظفة الاستعلام الاتصال به لإعلامه بقدومها.

Arab_Books

– يمكنك انتظاره في المرسم، سيلتحق بك خلال عشر دقائق.

ابتسمت لها، سحبت نفساً عميقاً وخطت متبعة الاتجاه الذي أشارت إليه الموظفة، تعمدت التماهل في الوصول، الانتظار ليس من عاداتها المحببة، إلا أنه كان قريباً جداً، واجهة زجاجية كبيرة يمكنك من خلالها مشاهدة الطاولات الطويلة والمقاعد الملونة، حين خطت نحو الداخل جابت بنظرها على اللوحات التي غطت جدران المكان بالكامل، ثار فضولها أن تقرأ أسماء الطلاب المدونة تحت كل لوحة، علّها تجد اسم ودّ هناك، رغم إمكانية تمييزها رسوم ابنتها مباشرة إلا أنها فضلت أن تبحث عن الاسم أولا ذاك الاسم الأحب لها الأقرب لروحها مرهم جروحها المتآكلة، أحزنها أن اسم ابنتها لم يعلن عن تواجده رغم ثقتها بأحقيته لموهبتها المميزة، لا تزال طفلة صغيرة ستقرأ يوماً اسمها في كل مكان، تمني نفسها دوما بذلك، ولا تدخر جهداً لمساعدتها على تحقيق هذه الأمنية.

توقفت عند رسوم الأطفال مطولاً، ألوان زاهية حدائق ووجوه مبتسمة، ألعاب وعوائل مرحة، في طفولتها كانت تُرغم على رسم الدبابات والجنود، بعض مشاهد الحرب والأعلام المرفوعة كإعلان نصر، نصر زائف وكاذب يتردد مع الأناشيد الصباحية، مع دروس التربية الوطنية التي تعلمك كيف تملّ الوطن بوقت أسرع، كيف تردد كذبات الانتماء التي لا يمكن لك الإيمان بها حقاً، وأنت في هذا السنّ الصغير، حب الوطن كان بحاجة لألوان زاهية كهذه بدلاً عن الأخضر الزيتي المائل للسواد وكل التدرجات الصحراوية الآخرى، الانتماء الذي تشعر به نتجية الحب لا التلقين والترديد والتخويف، مرَّ على ذاكرتها مباشرة ذاك المشهد الذي لن تنساه ما حيت، كان خلال واحد

Arab_Books

مـن دروس الوطن تلك حـين سألت المعلمـة ذات الانتماءات المعروفة إحدى الطالبات:

– لِم تقولين كل صباح عاش القائد يا نور؟

– كي لا يذهب أبي إلى السجن.

أصبنـا بحالـة ذهول جميعاً، فرغـم كون هذا السـؤال خارجاً عن المنهـج لكن إجابته معروفة للجميـع، إلا ان لهذه الطفلة الهادئة التي لا تتحرك أو تتكلم دون أن يطلب منها رأي آخر كما يبدو!

سألتها المعلمة:

– وما دخل والدك؟!

– هو يرفض أن نقول عاش القائد، لكن أمي قالت إن علينا ترديدها في المدرسة، كي لا يذهب أبي إلى السجن ونبقى دون أب.

لم تـرد المعلمـة علـى كلامهـا بشـيء استأنفـت الدرس كالمعتاد، واستمرت الدروس طيلة العـام بشكلها الرتيب، الفرق الوحيد أن نور لم تعـد تشارك دروس المدرسة، ومن الـوارد جداً انها لم تعد تشاركهم الحياة أيضا.

– مرحباً مدام رهف.

التفتت مبتسمة له فأضاف قائلاً:

– أعتذر عن مصافحتك.

Arab_Books

ورفع يديه لإظهار بقع الدهان التي تلطخ كفيه.

– رغم أني أفضل تلطيخك بالدهان، عليك الاعتياد ستعيشين عمراً معه، نظر نحوها بنظرة لم تفهم مغزاها، لم تكن تدرك كيف لعينين بهذا الصغر أن تلتهمها بثانية واحدة.

فتح براداً صغيرا كان بالقرب من مكتبه.

– استغرقت وقتاً طويلاً لإقناعهم بالسماح لي بجلب براد هنا رغم أنه على نفقتي الخاصة، حتى اقتنعوا بحاجتي الدائمة للمشروبات الباردة.

– بطقس كهذا؟

أشار إليها بالجلوس على الكرسي المقابل له، فتح قنينة مشروب غازي بطعم البرتقال، وانحنى ليسكبه في قدحٍ من أقداح الاستخدام الواحد وهو يسمُّر نظره نحوها.

– تعتريني الحرارة دوماً، ليتني أعرف البرد مثلكم.

ارتبكت من طريقة كلامه ونظراته، قلبت اتجاه شعرها نحو اليسار ثم أعادته يميناً بعد أقل من ثانية.

مشى مبتعداً قليلاً نحو عارضة لوحات مغطاة بغطاء أبيض.

– أقمت مسابقة صغيرة للأطفال، طلبت منهم رسم لحظة السعادة الحقيقية في حياتهم، أذهلتني التقاطة ودّ.

Arab_Books

تركت مكانها وتوجهت نحوه، عُلقت ثلاث لوحات على العارضة كانت العليا لسيدة تتوسط كنبة بينما يغفو على ساقيها طفلان.

– اختيـار فكرة كهذه وتنفيذها بعمر كهذا ليس بالأمر الهين، حين سألـتُ ود قالت بأنها وأخاها ينامان كل يوم بهذه الطريقة بينما تقرأين لهما حكاية ما.

اغرورقت عيناها مباشرة فابتسم هو.

– لهذا حينما أصرت معلمة صخر يوم أمس على التحدث مع المدير والاخصائـي النفسي للمدرسة بعد ما دار بينكمـا اصطحبتها إلى هنا، أخبرتها ما قالته شقيقة صخر، أفهمتها أنك تمرين بظروف خاصة وأنك لا تمثلين خطراً حقيقي على أولادك بل العكس تماماً.

– خطراً على أولادي؟!!!

توجه نحـو الكرسي الكامن خلف مكتبه، جلسـ عليه بثقة ثم بدأ يؤرجحه كالأطفال.

– مدام رهف، تدركين طريقة تفكيرهم هنا ؟

– وهل تنتمي هي لهم؟

ابتسم وأزاح خصلة من شعره إلى الخلف.

– بالنهاية جميعنا جئنا هنا من أجل الانتماء، أليس كذلك؟

– وهل يعني هذا تبني أفكارهم كمعتقدات خاصة بنا.

Arab_Books

– بل يعني تنفيذ قوانينهم واحترامها، يحتاج نقاش كهذا إلى سيكارة وفنجان قهوة مرّ.

– قلت إنك تفضل المشروبات الباردة.

– هناك دوماً استثناءات.

عاد لابتسامته الغامضة.

– عموماً أخبرتها بأنك ستعودين حالما تهدئين وتعيدين التفكير بكل ما حدث، وقتها فقط يمكنكما حل الموضوع بروية.

– ومن أين تأكدت بحدوث هذا؟

– حدس..

– وهل تؤمن بالحدس فعلا؟

– أثق بالحدس والطالع والنجوم والأبراج، بكل الماورائيات واللامنطقيات، أثق بهذا أيضاً فهو بوصلتي التي لا تخطئ أبدا.

حين أشار نحو قلبه، تسمَّرت عيناها على مكان إشارته، تخاف هذا الموضع كثيرا بقدر ما تخشى هذا الرجل، حولت نظرها لكل الاتجاهات، وهي تحاول تجاهل تلك العينين المفترستين.

– سأغيب لدقائق وأعود بها، أتمنى أن لا تكون مشغولة بحصة ما، فعندها ستجبرين على قبول دعوتي لفنجان قهوة في المقهى القريب للمدرسة.

Arab_Books

– سأدعو الله أن تكون هنا.

أجابت ببديهة وصدق، فقهقه عالياً.

– لم أكن أعرف أن مجالستي مزعجة لك لهذا الحد.

– عفواً لم أقصد هذا أبداً.

أشار لها بيده وهو يخرج من المرسم.

عاودت الوقوف أمام لوحـة ودّ الفائزة، كانت تفكر بأنها محظوظة فعـلاً محظوظـة لدرجة لم تكن تدركها هي لولا هـذه اللوحة، هي تدير عائلـة رائعة رغم كل شيء، رغم بـرود الحياة مع زوجها، وخيانته لكن عليهـا الاعتراف بأن حياتهـا أفضل من أخريات كـثر، على الأقل هي تملك ما تسامح وتعيش لأجله.

تسامح.. هل عليها حقاً إعطاء فرصة أخرى له؟

عاد بسرعة لم تكن تتوقعها.

– مدام رهف، لكِ أن تشكري الله الآن ، فالآنسة نهى آتية خلفي.

ما هي إلا ثوان معدود حتى أطلت.

– مرحبا مدام رهف.

لم تكن ملامح وجهها مرحبة بها، حتى نبرة صوتها كانت منزعجة قليلاً.

Arab_Books

– أهلاً وسهلاً.

مدت رهف يدها للتحية، بينما ترددت المعلمة قليلا قبل رفع يديها، رفع علبة السجائر عالياً.

– سآخرج قليـلاً خارج المدرسة مع معشوقتـي وأعود، أتمنى أن لا تقع الحرب العالمية الثالثة خلال هذه المدة.

أجابته رهف بسرعة.

كن واثقاً من هذا.

– تعنين حدوثها!

توجهت أنظارهما نحو رهف بقلق حقيقي.

بدا الخجل واضحاً على ملامحها.

– بالطبع لا...

– آمل هذا.. البراد لكما فقط احرصا على إبقاء علبة عصير لي.

غمـز لرهف دون أن تنتبه نهى التي كانـت تولى ظهرها له، تربكها جرأة هذا الرجل دوماً.

– مدام رهف...

– قبل أن تبدئي، أتمنى أن تتقبلي اعتذاري عما حدث يوم أمس.

Arab_Books

أطرقت نهى رأسها لبرهة.

– لا عليـك، أخـبرني مهلب بأنك تمرين بصبـاح متعب، أتمنى فقط إخباري في حال يمكنني المساعدة.

مـن أين له أن يعـرف مرورها بصباح صعب هـل يتجسس عليها، ثـم إن أي تجسس قـد يوضح له حقيقة ما حدث، لا أحد غيرها والرب يعـرف هذا السرّ، الطـرف الثالث الوحيـد هو من أوصـل تلك العلبة للباب.

– مدام رهف.

تركت أفكارها وحاولت التركيز معها مجدداً.

– أتمنـى أن تكوني صادقة معـي، هل تعانون من أي عنف أو معاملة سيئة من قبل والد صخر؟

ردت بتعجب.

– إطلاقاً...

نهضت من مكانها و توقفت أمام لوحة ودّ:

– آسفـة لسؤالي هذا ولكننا نتحدث هنا لمصلحة أولادك التي أدرك بأنها أولوية لديك.

– اسـألي ما تشائين آنسة نهى، ولكـن أرجو منك أولاً إخباري عن المشكلة الرئيسية.

Arab_Books

– أرجو منك التحلي بالصبر قليلاً.

أومأت برأسها سانحة الفرصة لها للإكمال.

– أعـرف جيداً أنكم تتزوجون في بلدكـم الأم من طوائف مختلفة، فهل تتبعين أنت ووالد صخر نفس المذهب؟

أثـار هذا السـؤال استغرابها، كانـت تتوقع أي سـؤال آخر، حول حالتهـم المادية، الاجتماعية، العقليـة لا أن يتعلق الأمر بالطوائف، هي التـي هربت من وطن أضحى مرتعاً لهـذه التصنيفات، لتقف اليوم هنا علـى هذه الارض التـي تفصلها عن هنـاك قارات ومحيطـات لتستمع لسؤال يتعلق بطائفتها مجدداً.

– آنسة نهى أنا وأولادي لا نتبع مذهباً معيناً ولا ننتمي لطائفة معينة.

– لكن هذا لا ينبطق مع ما قاله صخر لصديقه.

– هل لكِ أن توضحي الصورة لي أكثر؟

– كنـت أتعرف على الطلاب كمعلمـة جديدة، حين حان دور أحد الطـلاب الذي يبدو أنه قادم مـن خلفية متطرفة بعض الشـيء فأعلن أنه مسلم سني على وجه الخصوص فانتفض صخر هنا، وهو يعلن أن صديقه سيدخل النار لأن داعش من هذه الطائفة وسيدخلون النار جميعهم.

ضحكت رهف بصوت مرتفع.

– صخر؟؟ هـل أنتِ متأكدة من كلامـك؟! ولدي الذي لا يعرف حتـى الآن مـا الفرق بـين المسلم والمسيحـي واليهـودي يتحدث بلغة

Arab_Books

الطوائـف، ولدي تربى وولد هنا يا آنسة، حتـى أنه لم يحدث أن سمع حواراً متعلقاً بأمر كهذا مطلقاً.

– أعرف أنه ولد هنا، فقد عدت إلى ملفه بعد تلك الحادثة، وناقشته أيضا على انفراد.

– هل لي أن أعرف بماذا أجابك؟

– قال إن والده قد قال هذا وقت مشاهدته الأخبار.

طأطـأت برأسها، شعرت بدوار وإحساس عـال بالخزي، يبدو أنها أهملت أولادها مؤخراً، صخر بالذات أبعدته كثيراً عنها كانت ترى به حسام بكل لفتاته وملامحه،

حاولت الوقوف فلم تقوَ على ذلك، فعاودت الجلوس مجدداً.

– مدام رهف!!!

استجمعـت قواهـا، أشـارت لهـا بأنهـا بخـير، حملـت حقيبتها واستعدت للخروج.

– أشكـر صـبرك واهتمامـك آنسـة نهـى، سأناقش والـد صخر بخصوص ما حدث، وبالنسبـة لصخر أتمنى أن يتم التعاون بيننا ليعاود نشاطه وحبه للمدرسة.

– لا تقلقي مدام، أنـت تعرفين الأطفال جيدا فهم ينسون بسهولة، وسأعمـل أنـا أيضا على تغيير فكرتهم هذه، ولكـن أرجو منك الانتباه مستقبلاً ل....

Arab_Books

تركت المكان دون أن تستمع حقيقة لآخر نصائح المعلمة، شعرت بدوار قوي، بدت كمن يترنح إثر سكر، بدأت تسعل بشدة، أحست باختناق حقيقي، حاولت أن تخرج مسرعة قدر استطاعتها، زاد اختناقها، شعرت أن عطراً مستخلصاً الورد يملأ رئتيها، اختفت ممرات المدرسة، شوارع طويلة بدت تتجلى أمامها، قدور عملاقة، نساء متعرقات يهرسن اللحوم والأحزان، حبال من أضواء دقات ساعة، قبة منارة، شموع وصليب كأن يداً خفية تضغط على رقبتها، تسارع نبضها بشدة اتكأت على سياج المدرسة الخارجي، عينان تقتربان منها، نظرات شهوانية، بخور رجل مخضب اللحى يقترب منها فتتحول لحيته الحمراء إلى لهيب، يهمس لها بتودد ماجن(سأعقد قراني عليك، صورياً فقط، تذهبين معي إلى بيت الله الحرام، سيخرج الجان منك ما أن تطأي أرض الله الطاهرة).

اختفى كل شيء حين حلت كفٌ على كتفها فصرخت كجنين يولد للتو.

– اتركني.....

– رهف.. رهف هل أنت بخير؟

أتسعت حدقتها خرَّت جالسة، ساقاها غير قادرتين على حملها، استمرت بتحريك كفها حول رقبتها كأنها تحاول التأكد من عدم وجود حبل حولها، سحبت نفساً قوياً كغريق مد له طوق النجاة.

– آس..فة.

Arab_Books

بقيت مكانها لدقائق، كان مهلب ينظر نحوها بخوف وتوجس،حاولت الوقوف، لكنها فشلت، مد يده لها.

– أنتِ بخير، فقط استندي عليّ، سأوصلك إلى المنزل.

هزت رأسها رافضة.

– أنا بخير، سيارتي قريبة، بنفسي سأذهب بنفسي شكراً.

– لن أسمح لك بالقيادة هكذا، هيا سنذهب لشرب فنجان قهوة وستخبريني بما حدث، هل أزعجتك نهى؟

– لا شيء.. كلا..لا....

– لن يفيدك أي رفض، أعطني يدك لو سمحت.

تركت يده الممدودة معلقة بالهواء، تجاوزته متوجهة نحو سيارتها، لحقها دون أن يعبأ بتجاهلها له، أسرع الخطى وتوقف أمام باب سيارتها، أشار لها لإعطائه مفاتيح السيارة.

– سنذهب لشرب القهوة، وأنا من سيقود، وبحالة رفضك سأضطر إلى الاتصال بالشرطة لضمان سلامتك.

يده الملطخة بالألوان، تسريحة شعره، بنطاله الممزق، وقميصه الصيفي ذو الأكمام القصيرة في هذا المناخ قارص البرودة، تبدو هذه التفاصيل كافية لتأكيد جنونه وإمكانية فعله لشيء كهذا بسهولة.

أعطته المفتاح بتردد، وتوجهت نحو الجهة الثانية من السيارة.

Arab_Books

– لا تقلقـي لن أختطفك سنذهب لمقهى قريب، تتحسن حالتك ثم أطلق سراحـك، توصليني للمدرسة مجددا قبل بـدء حصتي التالية، فأنا معلم منضبط جداً.

ابتسمت بطريقة باهتـة، لا تستطيع التركيز بكلماته، كل ما يشغلها الآن خطر عودة النوبة؟ عولجت منذ مدة، طبيبها النفسي هو من أخبرها بأنها بخير، حتى أنها ابتعدت عن الضغوط كما طلب منها.

لفت انتباهها بحثه بين جوانب كرسيه.

– هل من خطب؟

– أبحث عن قرص فيروز؟

– ولِم أنت متأكد من امتلاكي لواحد؟

– أين هو؟

– أجبني كيف لك أن تعرف ما أملك هنا؟

– أعرف مـا تملكين.. وما تحلمين بامتلاكـه.. أعرف الكثير، فقط ثقي بي.

Arab_Books

Arab_Books

الفصل الخامس

اعتراها شعور غثيان قوي، فتحت باب السيارة، سحبت نفساً كافياً لسحب كل هواء المدينة، بقيت واقفة بتردد أمام المقهى. ماذا لو مرَّ أحدهم؟ ما هو موقفها لو تم سؤالها عن مهلب كيف سيبدو موقفها حينها؟.

– ألا زلت تشعرين بدوار؟ يمكنك الإمساك بيدي، تشبثي جيداً فأنا طوق نجاتك.

أي مجنون هو، بقيت تحدق به لوهله.

– أظن أنك تفكرين بمدى جنوني، أو قد يكون هناك سبب آخر لتنظري لي بهذه الطريقة؟

أعقب كلامه بغمزة أخرى.

نظرت نحوه بغضب.

– لنعد إلى المدرسة لا بد بأنك تأخرت.

– لا تخافي ستكون القهوة على حسابي، يقال إن العراقيين كرماء، من أين ورثت هذا البخل؟ أم هي عادة مكتسبة... من زوجك مثلاً؟

Arab_Books

رفعت رأسها بسرعة مدهوشة منه.

– منذ الصباح وأنا أستمع لكم وأنتم تتحدثون عن حسام بسوء؟

ابتسم باستهزاء.

– يقول طالعك اليوم بأن غضبك من الشريك قد طال وأنك بحاجة لأخذ قرار مصيري.

اختارت طاولةً تؤمن لها تغطية كاملة عن عيون مرتادي المقهى.

– ما نوع قهوتك؟

– يبدو أنك منجم جيد، أيعقل أن تفصيلاً كهذا يصعب عليك كشفه؟

– لست منجماً أنا قارىء جيد فقط.

– قارىء!!

– نعم، لست قارئ كتب مملة، أنا أقرأ الأرواح.

– رسام، منجم، وطبيب نفسي.

– وساحر أيضاً.

أعقب كلامه بثقة، فأجابته بتحاذق.

– تجيد ألعاب الخفة، سيجنُّ صخر لو عرف هذا.

Arab_Books

– يبدو أننا سننهي حديثنا بهذه الطريقة، أيمتعك أن أبقى واقفاً هكذا؟

طأطأت خجلا.

بقيت تطالع وجوه المرتادين خفية كمحقق سري في أحد الأفلام القديمة، كانت تبحث عن وجوه مألوفة لتختبئ عنها، أو تكون سبباً منطقياً لهروبها من هذه الورطة التي زجت بها، حولت نظرها نحوه كان يقف بالقرب من العاملة المسؤولة عن الطلبات التي سرقت اهتمامها بجمالها الغامض،حاولت أن تحزر منبع أصولها الحقيقية، هذه اللعبة التي لطالما أمتعتها في غربتها، إرجاع الوجوه لجذورها، تؤرقها الأصول، تسبب لها فصاماً حقيقياً تهمها وتمقتها، تركت وطنها نتيجتها، ورغم ذلك، ترفض كل ما لا ينتمي لأصل الوطن، قطعة الأرض تلك التي أورثتها كل عقدها، تلك التي هربت منها، لتجدها مختبئة بين طيات متاعها.

– تسرحين كثيراً

– شكراً، القهوة تكفي..

ردت حين دفع بصحن من المعجنات الصغيرة أمامها.

– أجدك أعمق من فوبيا السمنة والوزن.

– ومن قال اني مصابة بها.

– لا يرفض صحناً كهذا غير المصاب بها.

Arab_Books

ابتسمـت وهي تفكـر بعقدة العظـام الناتئة التي عانـت منها لزمن طويل، هـي التي حلمت كثـيراً بجسد ممتلئ، تذكـرت جملة حكيمة حـول هذه الحالة، تلك الجملـة التي كانت ترددهـا عمتها كثيراً، تلك المرأة التي وصلها جسد خطيبها بصندوق خشبي يحوي أشلاءه، هذت كثيراً منذ أن غطت بفستان زفافها ذلك التابوت، وبقيت على هذيانها، هذيان يحمل واقعية يخشى منها العاقلون، لكنه كان تميمة حماية لها.

– ألم أقـل لـك.. تسرحين كثـيراً.. لو سجلـت كل الكلمات التي تخطر لك الآن لأتممتِ كتابة عشرة مجلدات في شهر واحد.

– أنا... في الحقيقة..

تلكأت إجابتها.

– يبدو أن الأفكار تتزاحم جميعاً فتضيق بها المخارج.

أنزلت فنجان القهوة من يدها

– لا فقط تأخرت، عليّ الذهاب حقاً.

– بهذه السرعة؟ سيكلفك استعاجلك رؤيتي مجدداً

نهضت من مكانها دون أن تجيبه أو حتى تفكر بالنظر نحوه، قطعت نصف المسافة نحو سيارتها ثم توقفت لبرهة.

– أتفهـم تماماً أنك نسيت مسؤوليتـك بإيصالي إلى المدرسة، ولكن ماذنب هذه الحقيبة مثلاً كي تهمل بهذه الطريقة؟

Arab_Books

– أنا آسفة حقاً و.....

– أعـترف بأني شخص طماع وانتهازي، لـذا سأستثمر أسفك هذا لضمان دعوة منـك، على وجبة طعام عراقية مثلاً، غداء معتبر لشخص مسكين مثلي.

– ولكـن لا توجد مطاعم تقدم وجبـات كهذه في المدينة هنا، على الأقل على حسب معرفتي.

– ومن تحدث عن المطاعم ؟

تركهـا متوجهاً نحو السيارة، مستعداً لتولي القيادة، توقفت مكانها وهـي تستغـرب إمكانيته على فرض ذاته بهذه الطريقـة، أنزل زجاج السيارة، أشار بيده حاثـاً إياها بالإسراع، تقدمت بتردد وهي تدعو الله أن يمرَّ هذا اليوم بسلام دون أن يراها أحد، الاختباء من الأعين، الخوف حتـى من نظـرات العصافير، شعـور اختبرته قبل سنـوات بعيدة، حتى كادت أن تنسى كيف يكون.

اعتمـدت إنزال شعرها علـى جهتي وجهها لئلا يميزهـا العابرون، أخذهـا التفكير بعيـداً بتلك العقد النفسية التي تـزرع بداخلنا، نخاف العابريـن، نخاف المقربين وكل ما يقع بينهما، كل من يمشي على ساقين هو مصـدر رهبة، لذا ما إن ننفرد بذواتنا فنحن نمارس الكبائر براحة لا يشوبهـا غير قلق اكتشاف الآخرين لها، ثم ماذا؟ ماذا لو لم نكتشف لو سـتر الله أفعالنـا بغطاء، كيف لنا احتمال رائحـة العفن المحبوسة بذلك الفـراغ المحيط بنا، تلك النتـوءات المليئة بالقيح، قـد نستطيع إخفاءها والتلاعب بهيئتها إلا أننـا لا نستطيع إجبار ظلالنا على اختفائها أيضاً،

Arab_Books

ظلالنا جانبنا الأسود الفاضح لأقبح ما نخشاه، أن نكون ضئيلين جداً، أن نضطر أن نخطو فوق جزء منا، أن نبدو متضخمين، ونحن على ثقة بضآلة ما نحن عليه، رغم هذا فنحن نصدق ظلالنا حتى نصدم بمرآة الناس، وحقيقة انعكاسنا عليهم.

– سيرتك الذاتية ستنافس ما خطه ماركيز بمذكراته.

حين التفتت إليه كانت قد أحيطت ملامحة بغمامة زاهد، نسيت تماماً كينونته والمكان المحيط بها.

– هل أبدو كشبح لك؟ لمَ هذه النظرة المهولة؟

– لا.. آسفة لم أفهم ما قلت.

– لا شيء، كنت أقارن ما مررت به وقصة حياة أشهر كتاب القرن.

– وكيف عرفت ما مررت به، جلسة تحضير أرواح أم اختلست النظر لبقايا البنّ في فنجاني.

– لا يحتاج الأمر لكل هذا التعقيد، فقط مراقبة صمتك وما يتبعه من تشكيلات في ملامحك كافية لمعرفة ما يدور في فلكك الداخلي.

وكأنها لم تستمع لحرف مما قاله

– وصلنا الحمدلله، شكراً لدعوتك ولطفك اليوم.

تجاهلها بالمثل، عمد إلى نزع المطاطة التي يربط بها شعره بهذه اللحظة بالذات، كان يعامل الوقت مثلها تماما كشيء قابل للتمديد،

Arab_Books

شـيء عديم الملامح والأهمية، ترجلت بعصبيـة من السيارة بدأت تفقد صبرهـا بسببه توقفت عنـد باب السائق بطريقة تحثـه على الخروج، لم يعرهـا انتباهه أنزل المرآة وربط شعره أمامها، كان يعامل خصلاته كأنها مغزولـة من خيوط الذهب، بعناية وإعجاب، حين مد يده لها مصافحا لوداعه تعمدت أن تصافحه بأطراف أصابعها ساحبة يدها بسرعة.

– قودي بحذر.

ضغطت علـى دواسة الوقود بقـوة وعناد، تحـاول الهرب بسرعة، وإيصال رسالة بعدم أحقيته بالتدخل في حياتها وإملاء أوامره.

أخرجت القرص المدمج، نظرت معتذرة لفيروز فتحت النافذة رمته خارجـاً، كانت ستدفع غرامة باهظة لو أن شرطياً لمحها ولكنها لا تعبأ، لا يهمها هذا مطلقاً، كل ما يعنيها الآن، تحررها من كل القيود.

وهي مستعدة لهذا مهما بدا الثمن باهظاً.

Arab_Books

Arab_Books

الفصل السادس

هـي تدرك قابليتها السحرية على إقناع الرجال بما تريد، أصعب الرجال وأشدهـم ضراوة كانت قـادرة على ترويضه بكلمة، فتصـل إلى غايتها التي تريد، في سنتها الثالثة في الجامعة التي لم تتم دراستها بسبب الحرب الأخيرة، كانت تدرس مادة تدعى فلسفة التاريخ، لم يكن من السهل التعامل مع أستاذ المـادة مطلقـاً، حتى هيئته العامـة كانت توحي بإنزعاج دائـم، لم يبسط في يوم عضلات وجهه، أسنانه المائلة للون الخشب كانت تُغطى بشارب كثٍّ، عُـرف كعلامة فارقـة لمنتمين لحزب، كلما ارتفعـت درجتك الحزبية زادت الشعـيرات طردياً وصـار سوادها أحلك، أخاديد مسنـين، وشعيرات بلون الشبـاب بفضل الصبغـة الهندية، بطن كسنام جمـل مقلوب، وطول يقاس بالأشبار لا الأمتار، كلماته أيضاً لم تكن بعيدة عن هيئته المنفرة تلك، لذا كان جميع الطلاب يتحاشونه، فيما اتخذت هي دور الزاجل بينهم، فهي مفتاح تغيـير موعـد الامتحان وتقليل عـدد الصفحات المطلوبـة وتفاصيل أخرى تتعلق بذلك المتطلب الذي كان حجر عثرة في طريق الكثير من الطلاب، لذا حاولـت أن تساعد الجميع على قدر استطاعتها، و لم يكن هناك مقابل مثلما أشيـع بين الطلبـة كمجازة لها على ما تفعله لأجلهـم، كلماتهم تلك هي ما جلعت زاهد يشتاط غضباً وهو يمنعها من الذهاب لمكتبه مجدداً:

– انتِ لا تعرفين حقيقة هذا العجوز، توقفي عن الذهاب لمكتبه.

Arab_Books

كثيراً ما ردد هذة الجملة على مسامعها، وصل الخلاف في إحدى المرات إلى حد جارح حين ثارت قائلة:

– متشكك ومتخوف كأنك لا تعرفني.

جوابه القاتل حينها هو ما أجبرها على مخاصمته لشهر كامل:

–أعرفك جيداً يا رهف وتلك هي المصيبة العظمى.

حل الصلح بينهما، بعد أن طلب أستاذها الزواج منها سراً، تذرع بحاجته لموافقة زوجته ليكون زوجاً بصورة قانونية، كانت هذه حجته وقتها، طلبت منه أن ينتظر ردها، أوهمته لمدة بأنها تتدلل عليه، خشيت أن يتسبب رفضها المباشر برد فعل منه يجبرها على إعاده السنة الدراسية بأفضل الأحوال، فقررت المماطلة حتى تجد حلاً، فتكفل جورج بوش الإبن بذلك بعد إعلانه الحرب على العراق.

جلست أمام التلفاز موهمة نفسها بمشاهدته لحين قدوم حسام، كانت تريد الحديث معه حول ما حدث مع صخر، لكن شاشة التلفاز تحولت لشاشة عرض ذكريات عوضاً عن ذلك، حاولت تغيير مجرى أفكارها، وجهتها لكيفية فتح مجال الحديث مع زوجها، وكيفية إقناعه بأن يكون أكثر حذراً باستخدام كلماته أمام الأطفال، طال انتظارها فتوجهت نحو غرفة النوم، كان مولياً ظهره للباب، لازال الوقت مبكراً لخلوده إلى النوم، ولكنه يتعمد إغاضتها ضمن رسالته بوضع وسادة وغطاء على الكرسي المجاور لتسريحتها، كان يخبرها أنه لن ينام اليوم خارج هذه الغرفة وأن لم يرق لها هذا فيمكنها النوم خارجاً، هكذا بكل وقاحة وصبيانية.

Arab_Books

حملـت الغطاء وتوجهت نحو غرفة ولديها، يمكنها أن تنام بالقرب من ودّ بجسدها المختصر هذا، كما كان يصفها قريبها العاشق:

– أنـت كقصيدة مختزلة يا رهـف، مُختصر كل ما بكِ، ولكن بطريقة مركزة مكثفة، لهذا لن يفهمك سوى الراسخين في العشق.

اندسـت بخفة بالقرب من ابنتهـا، بقيت توجه نظرها نحو الوسائد التـي تضعهـا تحت أسـرة أطفالها، كانـت تخاف أن يسقطـوا ليلاً من أسرتهـم، رغم أنهـم ورثوا صنمية النـوم من والدهـم، إلا أنها تخاف عليهم لدرجة الهوس، كما قال لها الأخصائي النفسي ذات يوم، أجابته حينها:

– تقول هذا لأنك لم ولن تكون أماً في حياتك.

كثـيراً ما قلقت من أن يجرب أطفالها جـزءاً مما خبرته في طفولتها، النـوم على فراش قاس، أن يحرموا مما يحلمـون بـه، أن يمرضوا فلا يجدون الـدواء، كانت صيدلية المنزل لديها تنبئ بحدوث كارثة قريبة، أو إغـلاق عام لكل المذاخر، هذا الهوس الذي اقتحمها مضافاً لما تملك بالأصـل بعد أن أصيب صخر بحمى في إحدى الليالي، وكانت الطرقُ مقطوعـة وكل المحلات والمذاخر مغلقة بسبب الثلوج، منذ ذلك اليوم وهي تختزن الأدوية والأطمعة، رغم اعتراض حسام واتهامها بالمبالغة.

شعرت بوهن و حرارة فجائية تجتاح جسدها، كأن طاقتها تسامت في هـواء الغرفة رغم هذا لم تستطع النوم، تركت الفراش كي لا توقظ ابنتها بكـثرة تحركها، توجهت نحو الثلاجة باحثة عن مشروب بارد، تمنـت لو أنهـا تركت صرامتهـا قليلاً وابتاعت علبـة مشروب غازي،

Arab_Books

ذاك الـذي هجرته منذ معرفتهـا بحملها لصخر، حفاظاً على صحتها وحرصـاً منهـا على ألا يقتدي بها بعد أن توقفـت عن إرضاعه عقب ثلاثة أعـوام متواصلة، اليـوم فقط تذكرت متعة لذع الغـاز للسانها، كان اليـوم بأكمله لاذعـاً وغريبا، حتى أنه قد يصيبهـا بالهشاشة مثل تلـك المشروبات اللعوب، أخرجت قنينـة عصيرها المفضل، لن تحتاج لأن تختـار بين الكؤوس، لها كأسهـا الزجاجي الخاص، لكنها تشعر بـبركان في داخلها، تركـت كل شيء أخـذت القنينة فقـط، وبدأت بشـرب السائل بنهم عابـر صحراء، وهي تتوجه نحـو غرفة المعيشة، فكرت بالجلوس بالشرفـة قليلا، لكن درجة الحرارة المشار لها بمقياس الجـو المعلق لم تشجعها أبـدا، هدأت حرارة بدنهـا قليلا بدت تذرع الغرفـة جيئـة وذهاباً، جمع من الأفكار يقيم حفـلاً صاخباً في رأسها الصغير.

الان فقـط فهمـت لماذا تربـط أمها رأسهـا بعصابـة وقت حدوث المصائـب، هي تضغط على أفكارها فتحجمها وتغير مقاساتها. أرخت جسدها على مقعد عند النافذة، بقيت تراقب الشارع الخالي من المارة، تحسد حجارته على الهدوء المحيط بها، على قسوتها وقدرتها على إبقاء ذاتهـا صلدة قوية دون أن تتأثر بما يمر عليها، بدأ ضجيج الأفكار يخفُّ ويحلُّ محلَّه الهدوء والنعاس..

Arab_Books

أحست أن الأرض تهتـز فتحت عينها مرعوبة، الحرب إنها الحرب صاروخ يسقـط، انتفضت من مقعدها بسرعـة، أرعبت بها ابنتها التي كانت تحـاول إيقاظهـا، احتاجت لبرهـة لتستوعب ما يحـدث، ودّ ومكان نومها، كانت دموع ابنتها بدأت بالتكون.

– ماما تأخرنا عن المدرسة، لدي حصة فنون اليوم سيعلنون الفائزين بالمسابقة.

كل مـا خطر لها في تلك الدقيقة النظر نحو ساعة الحائط، قبل ساعة من الآن كان موعد الباص، ضغطت على رأسها مجدداً بينما تدفعها ودّ بمحاولة لحثها على التحرك.

أقبـل صخر نحوهما فـاركاً عينيه، وعلى شفتـه ابتسامة ليست من عادته في الصباح.

– تأخرنا وانتهى يا ودّ لن نذهب اليوم إلى المدرسة أليس كذلك يا أمي؟

زاد تشتتهـا بين سعادة صخر ودمـوع ودّ، فكرت بأخذهم بنفسها للمدرسة وأن تتحدث للمديـر، لكن ما الذي ستخبره به، أنها مشوشة بسبـب طرد مجهول! أن زوجها تركها تنام خارج غرفة النوم.. زوجها ماذا عن حسام لقد تأخر هو أيضا، توجهت نحو الغرفة بسرعة لإيقاضه، لكنها لم تجد سوى شذى عطر ما بعد الحلاقة.

– نذل..

صرخت بقوة، كيف له أن يتركها نائمة كيف له أن يعاقبها من خلال الأولاد وبطريقة غبية كهذه، كثيراً ما رددت له:

Arab_Books

لو كانـت معارك طاحنة بيننا ستبقى حـول الطفلين خطوط حمراء لا تُمس.

عـادت ودٌّ لملاحقتها، احمرّ جفناها الرقيقان وبدت عيناها كبحيرة حزينة.

– مامـا، قد أكون أنا الفائزة فالأستاذ أخبرني أن رسمي هو الأجمل سراً، تخيلي أنني لن أسمع تصفيق أصدقائي.

ابتسمت وهـي تتذكر اعتلاء لوحتها على باقـي اللوحات، نظرت نحو عيني صخر القلقة.

– حسناً سأخبركم بأمر، سنذهـب إلى المدرسة الان.

صرخ الاثنان بذات الوقت، ودّ وهي تقفز فرحاً وصخر اعتراضاً.

– ستحضريـن دروسـك بينمـا نذهـب أنـا وصخر لقضـاء بعض الأشغال، التي احتاج معها لتواجد رجل معي.

علت ابتسامة فخر على وجه الصغير.

– هل ستأكلون حلوى التفاح يا أمي؟

– بالطبـع لا حبيبتـي، سنذهب لشرائها سوياً بعـد المدرسة احتفالا بفوزك، سأكون هناك لأخذك، لا حاجة للعودة بالباص اليوم.

تعلقـت برقبة والدتهـا وهي تقبلها بقـوة، فلحق بهـا صخر الذي يرفض أن تكون لأخته الأولوية لديها.

Arab_Books

– سنتأخـر ولـن نكمل كل مـا خططنا فعلـه، هيا ابـدؤوا بتجهيز أنفسكم بسرعة، وسأحضر المعجنات لتأكلوها خلال الطريق.

ركضـ صخر نحو غرفتـه وهو يقلد صـوت طائرة حربيـة، بينما التفتت ودّ فجأة نحو أمها.

– ماما.. قلتِ بأننا سنحتفل بفوزي، كيف تأكدتِ من هذا؟

استوقفها اتقاد فكر هذه الطفلة وقدرتها على التمييز والتحليل السريع.

– أثق بموهبتك يا حبيبتي، كما انك اخبرتني ان الأستاذ أسرك بتميز لوحتك، هيا سنتأخر.

حاولـت أن تتناسـى غضبها من حسام، لن تسمـح لما حدث أن يمر مـرور الكرام، أخطاؤه تتراكم كتـلاً أمامها، ومع أي زيادة فيها سينهار دافنـاً هذا المنزل تحته. أخرجـت صينية من الفطائـر المجمدة، سينتهي الخزيـن الذي أعدته قريبا، أي إهمال وصلـت إليه حتى إنها لم تتسوق منذ يومين والبراد شبه فارغ.

Arab_Books

سمعت صوت سقوط شيء عند باب الشقة، تركت كل شيء وتوجهت راكضة نحوه، كانت تأمل وجود طرد جديد فتحت الباب، فرأته واقفاً أمامها وقد أسقط كيس البقالة.

– حسام؟ ماذا يحدث؟

– أكره الأكياس الورقية هذه، كأنها هي من سيحلّ أزمة البيئة حقاً، اجلبي لي كيسا آخر يا رهف.

وهي ترى ما تبعثر على عتبة الباب لمحت العلبة السوداء، عادت لها حرارة ليلة الأمس وارتبكت، صلّت بداخلها الا يكون حسام قد انتبه لوجودها.

– أدخل يا حسام سأتدبر أنا أمر الأغراض.

– لا....

تجاهلته وبدأت بحمل الاغراض، بينما توجه هو لداخل الشقة لنقل الباقي، استغلت الفرصة ودست العلبة بجيب ردائها المنزلي.

أغلقت الباب لاهثة، وهي تفكر بكل الاحتمالات، هل رأى حسام العلبة، أيعقل أن يكون هو من أسقطها، هو يحاول منذ فترة إرضاءها، ولكن حسام؟!! بالنهاية هو ليس ذاك الفتى الرومانسي الحالم ليتبع طريقة كهذه.

وضعت الأغراض على الطاولة واتجهت نحو باب المطبخ، كانت حرارة بدنها بازدياد رغم هذا لم تخلع الرداء عنها، حرصا على تلك العلبة، التي تخاف عليها ومنها.

Arab_Books

– رهف.

التفتت نحو حسام برعب، مثل لص اكتشفه صاحب المنزل.

– أنـا آسـف على ما بدر مني ليلة أمس، لسـت سيئاً يا رهف، أنت التي تجبريني على إخراج الوحش داخلي.

لم تـرد عليـه، ربما في وقت آخـر، في موقف مختلف كانـت لتؤنبه، كانت ستسأله إن كانت هـي أيضا السبب في خيانته التي أوصلتهم إلى هنا، إن كانت...

وضع كفه على وجهها المتورد.

– رهف، هل مرضت؟ وجهك ساخن جداً، وترتعشين...

قلبهـا هو المرتعش الآن، تفكر باستدراجه بالكلام لمعرفة إن كان هو من يقوم بوضع هذه العلب.

– منذ متى وأنت تؤخر عملك صباحاً من أجل الهدايا والتسوق.

– شعرت بالذنب، صحوت متأخراً واكتشفت أنك قد مررت بليلة سيئة، لم أجد مـا أعد الفطور به فقررت أن أتسوق وأعد الفطور لكم، فكرت بباقة من الزهور، ولكني وجدت هذا ذا فائدة أكبر لك.

أقبلت ودٌ وهي تحمل فرشاة الشعر وربطة شعرها.

– ماما !!! لا تزالين بملابس المنزل سنتأخر.

– هل ستأخذينهم إلى المدرسة؟

Arab_Books

– ودّ فقـط، سأعـود مباشـرة، أتمنى أن تكون هنـا نحتاج التحدث قليلاً.

– اتركي صخر معي إذن وسأعد الفطور لوقت عودتك.

– حسنا فقط حاول أن لا تسمم أفكاره لحين عودتي.

تركته وتوجهت نحو غرفتها حين سمعت صوت صراخه.

– ماذا تعنين بكلامك هذا مهما حاولت أو فعلت لن ترضي في يوم ولن تتفوهي سوى بمرّ الكلام، لا فائدة لا فائدة ترجى معك يا رهف.

سمعـت صوت إغلاق البـاب خلفه بقوة، لم تحـاول إيقافه، كل ما يعنيها الآن أن تفتح العلبة أن تتأكد من تلك الزهرة من الرسالة المصاحبة لهـا، كانت الزهـرة متعبة هذه المـرة، بحجم أكبر مـن سابقتها وبعض بتلاتها مائلة إلى الإصفرار.

– لا أعـرف لم هـي حزينـة، تفتحت قبـل أخوتهـا، ابتسمت، ثم تكدرت، لكنها معك ستعود للحياة.

سمعـت صـوت نشيج خـارج غرفتهـا، غيرت ملابسهـا بسرعة، وتوجهت نحـو ودّ الباكية، كان صخر يضمها علـى غير عادته محاولاً تهدئتها.

– بابـا ليس شريراً لكـن الرجال يغضبون دوماً، بـدون الغضب لن نكون رجالاً.

أوقفها تعليق ابنها، الوقـت الوحيد الذي يقضيه صخر برفقة والده

Arab_Books

وحيداً وقت حلاقة شعره، يصحبه هو للحلاق، لأنه يرى من المعيب أن تدخـل امرأة محل حلاقة كما من المرفوض أن يذهب لمحل حلاقة مختلط خوفاً على شخصية ابنه وتحوله إلى مخنث مستقبلا.

– نصـف ساعة كل عشرين يوم ستهدم حياته، وتضعضع شخصيته، والجواب المعتاد:

–إنها مسألة مبدأ.

بدأت تقلق من مبادئه العجيبة ليس خوفاً عليها لكن لأجل الأطفال، لأجل سلامة وعيهم.

– ما بكِ يا حبيبة ماما؟

– أرعبها أبي حين صرخ، أخبرتها أن الرجال يصرخون دوماً.

ضمت طفلتها لصدرها وهي تطبطب على رأسها.

– ذوات العيون الجميلة، لا تليق بهن الدموع، ستتورم أجفانك ولن تبدي جميلة بصورة الفوز.

كفكفت دموعها وهي تنظر نحو أمها.

– عيناكِ منتفختان أيضاً يا ماما ولكنك جميلة.

تحسسـت عينها لم تنظـر إلى المرآة حتـى الآن، ليسـت المرة الأولى بالطبـع، حتى وهي تقـف أمام المرآة فهي لا تـرى انعكاسها، تمر عليها أوقـات تنسـى فيها ملامحها، تلـك الملامح التي سرقت عينيـه منذ أول

Arab_Books

تعارف في كافتريا الجامعة، كانت تطلب كأس شاي حين زاحمها محاولا الطلب قبلها، استجمعت شجاعتها لتبدأ شجاراً معه حين أخذ الكأس من يد العامل، سألها عن مكان جلوسها، فبقيت جامدة، وهي تفكر بجنونه، كرر سؤاله فأشارت له صديقتها التي كانت تراقب الموقف بصمت، توجه نحو الطاولة وضع القدح بمكانه، وعاد لدفع ثمنه، وهمس مقترباً منها:

– هذان الكفان يليق بهما اللمس والقبلات وليس حمل الأشياء.

ثم تلاشى بين جموع الطلاب. توقفت أمام مرآة المصعد، تبدو شاحبة، أشاحت نظرها عنها، قد تكون هي الأنثى الوحيدة في هذا العالم التي تكره هذا السطح العاكس، أخرجت نظارتها من الحقيبة، لتغطي ذبول عينيها، كانت لا تزال حزينة رغم توقفها عن البكاء، لا تزال عيناها تحتفظان باحمرارهما، عيناها اللتان ورثتهما من والدتها، تحملان لون العسل الجبلي، برموش طوال تكاد أن تتشابك عند أطرافها، ورثت أيضا أنفها الصغير المعقوف، كان يبدو مكسوراً، رغم أنه بخير، وكأنه يعكس هيئتها وداخلها المهشم.

استمرت بمراقبة طفليها أثناء القيادة، كانت ودُّ قلقة ويبدو هذا جليا فيتصلب جلستها وتحرك بؤبؤ عينها على الطريق، وكأنها تعد المباني للوصول لمدرستها، بينما كان صخر يدعي أنه قائد طائرة حربية تقاتل وتصطدم فيموت العدو، ويظهر آخر مباشرة فيكمل معركته. لا شيء يحفز رجولتهم كالقتال، العداء والألم، يلتحق بالمدرسة فيكون أول ما يضع في رأسه أن يكون قوياً قادراً على إرعاب الجميع كي لا يستضعف، يكبر قليلاً يقتات على خلق

Arab_Books

العـداوات والازمات، ثم ماذا يتجاوز هـذه المرحلة ليدخل مرحلة آلام العشـق كل مـا ناح لأجلك عـدد أكبر من الفتيـات تضخمت رجولتـك وأناك أكـثر، هكذا تدور العجلة حتـى يكبر ليتخار تلك المسكينة التي يصب خلالها كل عقـده النفسية ويعوض هفوات ما فاته في كل مرحلة.

– أخيراً وصلنا.

هتفت ود بفرح، بينما فال صخر مرتبكاً:

– ماما سأنتظرك أنا في السيارة.

– بل ستأتي معي يا صخر.

– ماماااا!!

– لن تبقى وحيداً هنا.

– لقد وعدتني بقضاء اليوم معك.

ترجلت من سيارتها، فتحت الباب لهما.

– ومتى أخلفت وعدي ؟.

خجلـت مـن جملتها هـذه، كانت تعلـم بأنها تحمل مـن الكذب الكثـير، هي من أخلفت وعدها لقريبهـا العاشق، هي من خذلت ذاتها بكل وعودها الكاذبة، سأكون امرأة ذا شأن، أتزوج زواجاً ناجحاً، إذا مـا تجرأ زوجي يوما على جرحي سأهجره، حسناً، حسام لم يجرحها،

Arab_Books

فقـط قتلها، سلبها روحهـا، أي تعلق روحي هذا الـذي جعله يضاجع غريماتهـا حتـى عبر الأثير، هكـذا بكل وقاحة وعري، هـو الذي يرى أن المداعبة أساليب ناشئـة، كانت قليلة أدب حين طالبت بحقها، لكن قريبتها كانت منزهة طاهـرة، وعشيقته الأخرى أيضاً ذاك الملاك الذي يداوي جراح المنكوبين.

توجهت برفقة طفليهـا نحو غرفة الفنون تأخرت بواقع عشر دقائق عن بداية الدرس، قبل أن يطرقوا الباب توجه مهلب لفتحه.

– لم تأخرتِ يا ود كنت سأعلن الفائزين الآن.

– SORRY MR. MY MOM WAS..

– أتأسـف منك، أنا من تسببت بتأخرهـم، كنت سأبقيهم اليوم في المنزل لكن ودّ أصرت على القدوم من أجل المسابقة.

أقترب منها متحدثا بهمس.

– هل أنتِ بخير؟.. أعني هل كل شيء على مايرام؟

– لا شيء يهم...

أبعدت نظرها عنه، كان يحاول اختراق روحها بنظرته تلك، يحاول أن يقتلع الكلمات من جذورها الداخلية.

– صخر؟؟ لم لست في فصلك ؟

– سيبقى اليوم معي.

Arab_Books

– ولكن....

– لا أود أن آخذ المزيد من وقتك.. سأذهب الان.

– مدام رهف، كنت بحاجة للحديث معك.

لم يستطع تفسير نظراتها، كانت بين المفاجأة والغضب.

– أعني بخصوص ود، هناك معهد للرسم و.....

تعالى ضجيج الأطفال، حاول إسكاتهم لكن دون جدوى.

– سنتحدث لاحقاً أستاذ مهلب لا أجد الوقت مناسباً لهذا.

– سانتظرك بعد الظهر نرتشف قهوتنا ونتوجه نحو المعهد.

– أستاذ مهلب أنا مشغولة اليوم، سأمر عليك في وقت لاحق لنتناقش حول هذه المسألة..

– الموضوع لا يتحمل التأجيل، سأنتظرك اليوم الساعة الرابعة والنصف بذات المقهى.

عاد مباشرة لطلبته، أشارت ودّ لها لتبتعد، يحرجها أن تبقى والدتها هنا فيعيرها الأطفال بكونها تُعامل كصغيرة، هكذا هم البشر دوماً يشتاقون للكبر يعيدون الأيام لأجله، وما إن يصلوا إلى أعمار النضج، حتى يعودوا للتصابي وإنكار تراكم السنين فوقهم، لم يرعبها يوماً تقادم العمر تلك الخطوط الدقيقة التي تهديها بشرتك لك، ما إن تطفئ شمعة الثلاثين لم تقلقها، حتى إنها لم تنتبه لها يوماً، إلا أن ابنتها هي

Arab_Books

مـن صدمتها بهذه الحقيقـة حين رسمت بعض الخطـوط البدائية قرب عينيها في إحدى المرات، كانت هدية عيد الأم صورة مرسومة بألوانها، سألتهـا يومها عن سرّ هذه الخطوط، أجابتها بأنها تظهر حال ما تبتسم، كم تخشى على هذه الطفلة من الكبر، أن تدرك وحشية هذا العالم وهي بهـذا النقاء، والانتباه علـى أدقّ التفاصيل المرهقة، فلكي تعيش في هذا الكون المضطرب تحتاج للتجاهل وهبة النسيان.

كان صخـر سعيداً جداً يتقافز أمامها مثـل كنغر صغير أُطلق تواً من جيب أمه:

– مامـا إلى أين سنذهب؟ متجر الألعاب؟ أم سنأكل البوظا؟ يا إلهي لا أصدق أنا وأنت لوحدنا بدون ود أخيراً.

– لا تقل هذا يا صخر، ودّ أختك الصغيرة عليك أن تحبها وتحميها.

– يكفي أنكِ تحبينها وتحميها.

– وأحبك أيضا يا صخر.

– تحبينها أكثر.

رفعت نظرها نحو المـرآة لتنظر نحو ابنها شعرت بحزن عميق نحو مـا يقوله، هي تعلم أن الكثير مـن الأطفال يرددون هذه الكلمات على مسامع ذويهم. لكن المشكلة الكبرى كونها تدرك تقصيرها نحو صخر في الآونة الأخـيرة، لم تستطع الموازنة بين أمومتها وغضبها من حسام، صخـر النسخة المصغرة من والده، لكن هذا بالطبع ليس بالعذر، هي لم تنجب حسام، لكن صخر هو أول شهقة هواء حقيقة تنفستها أول إنجاز في حياتها وأحب خلق الله لقلبها.

Arab_Books

ركنت السيارة بالقرب من الحديقة العامة، ترجَّلت من السيارة تأكدت من لفِّ الوشاح جيداً حول رقبة صخر.

– ماما إنه يخنقني.

– الهواء بارد ستمرض.

– لست صغيراً يا ماما، أبي لا يضع وشاحاً عند خروجه ولا يمرض.

أمسكت يده ومشت باتجاه الحديقة.

– حسنا، لكني أضعه...

– أنتِ فتاة والفتيات ضعيفات، وأنا رجل قوي.

– من قال إن الفتيات ضعيفات؟

– أبي.

– دعني أخبرك شيئاً، نحن الكبار نخطئ أيضاً، لا يوجد شخص لا يخطئ أبداً، الله وحده هو المجرد من الخطيئة.

– وأبي؟

– حتى والدك يخطئ ياحبيبي.

– أبداً...

– حسناً سأبسط الأمر قليلاً، أتذكر حين طلبت من والدك اللعبة التي رأيتها في إعلان التلفاز؟

Arab_Books

– نعم.

– هل تذكر حينما جاء بواحدة أخرى مختلفة تماماً؟

أطرق برأسه حزناً، فرفعت رأسه بحنان.

– لا بأس يا صغيري، لا داعي للحزن أبداً، الأخطاء تمنحنا الدروس التـي نحتاجها، دون الأخطاء لن نعرف ما هو الصحيح أبداً، هل كنت ستعرف جمال الضوء لو لم تر الظلام؟ لكن المشكلة الحقيقية أن نقترف الخطأ ونكرره ونعمل على تكبيره.

– وكيف يكبر؟

– حـين نتجاهلـه، حين يخبرنـا الأخرون أن ما نفعلـه غير صحيح ولكننا نصر على تكراره، حسناً ما رأيك أن نلعب لعبة؟

ابتسم وأشرقت عيناه الصغيرتان:

– حسناً، سأبدأ أنا.

– دون أن تعرف ما هي اللعبة؟

لم يخطر له فكرة كهذه، كانت عيناه حائرتين.

– لا بأس سأخبرك القواعد وستبدأ أنت، سيخبر أحدنا الآخر ما هي آخر أخطائه وكيف اكتشف بأنه مخطئ.

– لا أحب هذه اللعبة، أريد واحدة أخرى.

Arab_Books

– ولكني أحبها، هل ستتركني حزينة؟

– حسناً ولكن عديني بأن نلعب أخرى أحبها.

– موافقـة، بينما نفكر لنذهب نحو ذلك الكشك لشراء الشوكلاته الساخنة.

– أنا من سيدفع للبائع.

دست بعض النقود في جيبه وأومأت له باسمة.

تركها راكضـاً نحو البائع تباطأت في مسيرهـا لتهبه حرية الرجولة التـي يأمل، تخاف كثيراً أن يكون هذا الطفل هو نسخة مكررة لما تربى عليه أبوه وأخوها، وأغلب من قابلتهم من الرجال، حتى قريبها المتحرر ذاك الـذي ينادي بكل حريات العـالم، لم يتحرر يوماً من شرقيته، في ما عدا حين تقف حاجزاً أمام شهوته وغرائزه.

كان متحـرراً جدا حين يلصق جسدها على حائط المخزن الخارجي في منـزل الجـد، كان مؤمنا بحريـة المرأة والحب كان مؤمنـا بها أيضاً، حـاول إثبـات أن العذريـة لا علاقـة لها بالجسـد، وأن الغشـاء الذي تستميـت للمحافظة عليه، وهي بين يديه ما هـو إلا فكرة رجعية باهتة وقديمة زرعتها جدتها داخل عقولهم، قريبها الشيوعي ذاته هو من أقفل باب غرفة أخته لشهر كامل، حين زلّ لسان جاره بحبها وهم يحتسون مشروبهم الروحي.

رفعتـه قليلاً عن الأرض ليستطيـع إيصال النقود ليـد البائع، حينما أنزلته شعرت بنشوته، ابتسمت، وهي تربت على رأسه.

Arab_Books

– هل نبدأ؟

نظر نحوها برجاء، كأنه يتوسلها لئلا تجبره على البوح بنقيصة.

– ألا يمكن لنا أن نبدأ بلعبتي أولاً؟

– من الرجولة أن يفي الرجال بوعودهم.

تبرم قائلاً:

– حسناً، أنا لم أخطئ، لكن معلمتي قالت لي إني أخطأت.

– أحدث هذا في درس الحساب؟

تعمدت أن تظهر عدم معرفتها المسبقة لما حدث.

جلس على مقعد قريب، فتدلت ساقاه في الهواء، وهو يحاول جاهداً أن يصلها بالأرض.

– لن تصل قدماك هكذا، دعني أساعدك.

– أنا كبير، لا أحتاج للمساعدة يا ماما.

– حسناً إذن ما دمت كبيراً أخبرني ما مشكلة المعلمة الجديدة دون أن تتهرب، فالكبار لا يتهربون.

كذبة أخرى لهذا اليوم، هذا ما فكرت به.

– أخبرت صديقي أنه سيذهب إلى النار، ومعلمتي تقول بأني مخطئ

Arab_Books

رغم أني لست كذلك.

– ممم، حسناً وهل ستذهب أنت إلى الجنة؟

– طبعاً...

– كيف؟

– لأني لست سنياً...

– إذن ؟

فكر لعدة دقائق ثم قال بخجل

– i dont know نسيت الكلمة.

– حسناً بكل الحالات التسمية غير مهمة أبداً، انظر نحو ذلك الرجل.

أشارت نحو رجل مسن انحنى ليقدم الطعام لكلب.

– هل تظن أن هذا الرجل سيذهب للجنة أم للنار؟

– للجنة بالطبع فهو رجل لطيف، ويحب الخير.

– وماذا لو كان سنياً ؟.

– كلا يا أمي فهم قساة وقتلة.

آلمها ما قاله، أن يحمل ابنها كل هذه الضغينة، أن يعرف معنى الكره والقتل والموت، وهو لم يعرف معنى الحب والعشق بعد.

Arab_Books

– هل تتذكر قصة الأعواد ياصخر، تلك التي تتفرق فتكسر، جيمعنا نعبـد الله يا ولـدي، والله يحبنا جميعاً ويرحمنـا جميعاً يكفي أن تؤمن بـه ليسامحك ويدخلـك جنته لكن الاشرار يا بنـي أرادوا العذاب لنا في الدنيا، فأطلقوا علينا التسيمات لنتفرق، فنضعف ونموت.

– ولكن أبي قال هذا حين رأى ذلك الجيش الأسود في التلفاز.

– لا بـد أنك فهمته بصـورة خاطئة، فهؤلاء ليسـوا بمسلمين حتى هـم يدعون هذا فقـط لجعل المسلمين متفرقين فيسهـل غلبهم، الأغبياء فقط هـم من يصدقون هـذا، وأنت ذكي ومجتهد، لا تفكـر بهذا كثيرا فالموضـوع معقـد لن تفهمـه الان، كل ما أريده منـك أن تحب الجميع لترتاح انت، الكراهية تجلعنا وحوشاً هل تريد أن تكون وحشاً؟

– لا أنا سأقتل الوحوش كلها فأنا البطل.

– حسناً يا بطلي، لنذهب لنبتاع هدية صلح لصديقك.

كانت تقف قبالة المدرسة بانتظار ودّ، حين خرجت وهي تمسك بيد غريبـة وتحمل بيدها الثانية هدية كبيرة ويعلو رأسها تاج مزركش، ما إن لمحت السيارة حتى أفلتت يد معلم الفنون وركضت تجاهها بسعادة.

– ماما.. مااما look i won

احتضنتها ودّ بقوة، وأمطرت وجهها بالقبلات.

– ألم أقـل لك يا صغيرتي، هيا سنذهـب للاحتفال سنشتري فطائر التفاح وسأعدّ لكم غداءكم المفضل.

Arab_Books

– لا حاجـة أن ترهقي نفسك، فأنتم مدعوون لوجبة الغداء احتفالا بفوز ودّ، جاء صوته واثقاً، دون أن يفرط بنبرته الهازئة.

– شكراً جزيلاً، أنا لا أسمح لهم أن يأكلوا في المطاعم.

أعاد نبرته:

– لا تخافي مطعم حلال.

– لا علاقـة للدين بهذا الأمـر، لا أضمن صحية طعامهم، قد يكون ملوثاً، قد يدمن الأطفال على هذا النوع من الطعام وقد....

– وقد يكـون هناك عبوة لاصقة تحت الطاولـة، وقد يكون الطعام مسموماً والمطعم غطاء لعصابة أرهابية، مدام رهف (هونيها بتهون).

حمل ودّ بين يديه:

– تستحق ودّ يوماً متميزاً تماماً كموهبتها.

– please mom

صرخ الطفلان بذات الوقت، وأضاف مهلب:

– نحتـاج للحديث، هناك مطعم مناسـب للأطفال، سأدلك عليه، هل تودين أن أتولى القيادة عنكِ؟

أزعجتهـا طريقته، فرض تواجده عليها ليس على وجبة الغداء فقط، بل حتى داخـل سيارتها، فكرت بأن الأمر سيبـدو عادياً وأقل إحراجاً بتواجد ولديها.

Arab_Books

– سأقود أنا..

رفضت بهزة رأس.

ابتسم بلا مبالاة، وهو يفتح باب السيارة.

بدا الطريق طويلاً جداً بالنسبة لها، تواجده يجعل من اللحظة ساعة كاملة، بدأ يتحرك باحثاً عن شيء ما، التفتت نحوه منزعجة.

– أتعجب منك، أنت عراقية الأصل ولا وجود لأي أسطوانة عراقية في سيارتك، ذاك الطرب الأصيل أيعقل ألا يهزك سماعه؟

– تحب الطعام العراقي، وتستمع للأغاني العراقية، لم لا تطلب لجوءاً هناك؟

– لا تعنيني الأوطان يا سيدتي، بقدر القلوب التي نبضت بها، بلد تفتقت أرضه لتنجب جواد سليم ومحمد غني، ونوري الراوي، سمعت بلابله صوت ناظم وياس وحميد، تقديسه واجب عليّ، حين تكونين عراقية ولا تقرئين للسياب والصافي صباحاً فأنت لا تختلفين عن الطغاة بشيء، فقلوبكم تحمل ذات القسوة، كيف تغفين ليلاً دون تذكر مظفر وهو يشدو:

(شكَد رازقي ونيمته)

ضغطت على الفرامل بقوة، التفتت نحوه والشرر يتطاير من عينيها متجاهلة صراخ أطفالها المرتعبين.

Arab_Books

الفصل السابع

صرخت بقوة:

– ماذا تعني؟

– مدام رهف ما المشكلة، هل أنتِ بخير؟

بدا لها من الصعب جداً أن تتحكم بأعصابها هذه اللحظة بدأ جسدها بالارتعاش، حاولت أن تهدأ قليلاً أوقفت السيارة على جانب الطريق.

وعاودت سؤاله:

– أجبني يا سيد مهلب، مالذي عنيته بقولك هذا؟

– أنا لا أشكك بانتمائك فقط كنت أعني..

ضربت على مقود السيارة بغضب:

– لا تتجاهل سؤالي أنت تدرك قصدي.

بـدأت ودّ بالبكاء، أرعبها منظر والدتها، شعرت هي بدوار، تدارك الموقف مباشرة، ترجل من السيارة وحمل ودّ بين ذراعيه، وأشار لصخر باللحاق به.

Arab_Books

– من منكم يريد تناول الحلوى؟

أجابـه صخـر الذي حاول بصعوبـة أن يبدو قويـا و شحب وجهه بشدة:

– ماما لا تسمح لنا بتناول الحلوى قبل الغداء أبداً.

– لنجعل من اليوم استثناء.

صرخت رهف مجدداً.

– من أعطاك الحق، اترك أطفالي أعدهم إلى السيارة حالاً.

وضع ودّ على الارض وتوجه نحوها.

– رهـف اهدئـي قليلاً لا أستطيع فهم سبـب ثورتك هذه، حافظي على أعصابك من أجل طفليك على الأقل.

– لا يعنيك هذا، من أعطاك الحق بأن تتسلل لحياتي وتعطي النصائح، بأي حق تتلصص عليّ وتصل بك الجرأة أن تطأ عتبة منزلي.

– أنا ؟!!!!

– لـن يفيدك النكران بشـيء، كشفت أوراقك يا هذا، لكن تذكر يا سيدي الرومانسي بأني امرأة متزوجة وأمٌّ أيضاً.

– لا أعـرف أي أوراق تلك التي كشفـت، ولكن بكل الأحوال لا أجد الآن الوقت المناسب للنقاش، أعطني المفتاح سأتولى أنا القيادة.

Arab_Books

تركـت يده معلقـة بالهـواء، أشـارت لطفليهـا بصعـود السيارة، وانطلقت عائدة نحو المنزل تاركة إياه بحالة ذهول خلفها.

أعدت الغداء بسرعة تاركة طفليها يأكلان وحدهما على غير العادة، دخلـت الغرفة فتشت في جيـوب ردائها بحثاً عن العلبـة، لكن بدون جدوى، شعرت بأنها تنهار.

– أين العلبة، أين أين؟

تعالى صراخها فهرع الطفلان نحوهـا، كانت ودّ تقف بعيداً تتكئ بجسدها على الجدار وهي ترتجف.

– ماما.. ماما..

– صخر هل عبثت بأغراضي مجدداً؟

نزلت دمعة من عينه.

– أقسم لك بأني لم أفعل، سأبحث معك ياماما فقط لا تصرخي.

لم تتحمل رؤية هذا الرعـب والحزن بأعين طفليها تشعر بالخزي مما يحدث، فقدت السيطرة كلياً.

– اذهبا لمشاهدة التلفاز، سأحضر لكم حلوى.

ابتعدت ودّ باكية..

– لا أريد الحلوى، أريد بابا أنت مخيفة اليوم.

Arab_Books

لم تستطـع التمالـك أكـثر أغلقـت بـاب غرفتها بعـد ان أخرجت الاطفـال تكورت علـى الأرض كجنين داخلةً بموجـة نحيب، شعرت بصقيع اجتـاح أوردتها فجمّد أوصالها، بدا لها أن السجاد الذي ترقد عليه قد تحول لأرض ملساء مصقولة.

شمـت رائحة أعقـاب سجائر رطبـة، تناهـى إلى مسامعها صوت بثٍّ مشوشـ، أغنية تمجد القائد، صوت طنين، يـزداد شعورها بالبرد، فيـزداد نحيبهـا طردياً مـع ارتعاشها، عـادت لتلك الشقـة المطلة على الشارع العام، أجبرها زاهد علـى القدوم معه قانعاً إياها بحتمية مراقبة أستاذهـا العاشق لها، كان عليهما أن يتحدثاا بأمور كثيرة خصوصا بعد القطيعـة الطويلة بينهما، خوفه من الجلوس بمكان عام، مع فتاة وهو ابن رجـل دين، لم يمنحها منفـذاً غير شقة صديقه التـي اقترحها هو، ما إن خطـت قدماها داخل الشقة حتى أيقنت ملكيته لها، قميص ارتداه يوم أمس، قنينـة مشروب روحي، فارغة، كأسـان متسخان أحدهما مزين بلـون شفاه عند حوافه، حملت الكأس بين يديهـا، شعرت أن الدم قد هجر عروقها، بـدأت بالصراخ: – تتحدثون عن الدين، تدرس فلسفته صباحاً، تجادل به، يخرج والدك ليأمرنا بالمعروف، وينهانا على المنكر، طبعـا فهو يود أن يدخره لولده الوحيد، عاهرات، تعاشرون العاهرات، وكـر رذيلـة، تدخلني وكر رذيلة يـا زاهد، كيف لـك أن تتحول بهذه السهولة، تلبس ثياب التقوى وما أنت سوى قوا...

لم يمهلهـا لإتمام حرفها الأخير، كان صوت ارتطام كفه على وجهها كان آخر صوت سمعته بعدها غزا الطنين أذنيها، وسقطت أرضاً.

لا تعرف كم من الوقت مرّ، وهي نائمة على هذا النحو، حين فتحت

Arab_Books

جفنيهـا أطلت على ظلام يحيط بها مـن كل جانب، حاولت النهوض بصعوبـة، رأسها يؤلمها بشـدة، الأولاد كانو أول ما خطر لها، تلمست طريقها نحو باب الغرفة، بدا لها سكون المنزل مريباً.

– صخر، ودّ.....

توجهـت نحـو الصالـة بسرعـة، كان التلفـاز يبث برنامـج رسوم متحركة، لكن لا أثر للأطفال، استمرت بمناداتهم دون أن تسمع إجابة، قبل أن تترك الصالـة، استوقفتها العلبة موضوعة على الطاولة الرئيسية، لم تتركهـا هناك، بالأصل هي لم تمر هنا منذ أن صحت صباحاً، فتحت العلبة كانت الزهرة هناك، لكنها لم تجد القصاصة.

شعرت بالتوتر أفرغت العلبة على الأرض سقطت الزهرة ووسادتها، لا شـيء آخـر... إلا أنهـا تنبهت لقطعة سـوداء صغيرة، تبـين لها أنها شريحـة ذاكرة، لم يسبق أن انتبهت لوجودهـا، أعادت كل شيء لمكانه وتوجهت نحو غرفة الأولاد، لا أحـد هناك، تخدرت أوصالها بدأت تصرخ بأسمائهم وهي تبكي.

فكـرت باحتمالية ذهابهم عند الجارة العجـوز، لكنها قد حذرتهم سالفـاً أن لا يخرجـوا دون إذن مسبق منها، خرجـت من شقتها حافية الأقدام، قرعت الجرس والباب بقوة

لا أحد يـرد، علا صوت نحيبها، بدا أمد بعيد حتى فتحت العجوز البدينة الباب.

– أولادي، أين هم أولادي؟

Arab_Books

بـدت المرأة مرعوبة، سحبتها للداخل، جالـت بأعينها المكان وهي تصرخ بأسمائهم، دون أي ردّ، لطمت على خديها بقوة.

– ضاعوا أولادي، أي أم أنا، يا الله لا تحرق قلبي يا الله.

– اجلسي.

قالتها الجارة الأجنبية بكل هدوء.

– أولادي ضاعوا

– هل اتصلت بوالدهم؟

كيف لم يخطر هذا لهـا، توجهت نحو شقتها راكضة، حمدت الله أن الباب لم يغلق وقد نسيت أخذ المفتاح معها.

لم تعـثر على هاتفها المحمـول، لا في حقيبتها ولا بأي مكان داخل المنزل، تذكرت بأنها تركته داخل السيارة، ندبت حظها الذي يعاكسها منذ الصباح أخذت علاقة مفاتيحها وتوجهت نحو السيارة، لم تتوقف عن البـكاء ومناداة أطفالها، حين وطـأت أقدامها الجرداء خارج المبنى شعرت بمـدى قساوة الجو في الخارج، لم يكن البرد وحده عدوها، كل شيء يعاندها بقسوة كأن الكون اتفق على مناكفتها اليوم.

ما أن توقف صوت رنين الاتصال، حتى صرخت بسرعة.

– حسام، أين أنت الأولاد يا حسام الأولاد؟

– الآن تذكرت أولادك يا مدام، هم معي الان.

Arab_Books

– كيف تأخذهم دون إعلامي؟

– لم تكـوني بحالة توحي بالاهتمام بأحد، اعـرفي كيف تسيطرين علـى أعصابـك أولاً كي لا ترعبي المساكين، مـا ذنبهم لتريهم وجهك المرعب؟

– أنت وغد، و لم ترَ جانبي المخيف بعد.

أغلقت الهاتـف بوجهه، بقيت متسمـرة في مكانها وهي تفكر بما حدث واحتمال اصابـة اطفالها بمكروة، ماذا يحدث منذ متى وهي أم مهملة. فكرت بأخذ جولة بالسيارة لتهدأ قليلاً، بدت لها الفكرة مجنونة تمامـاً، هيئتها وحالتهـا العصبية لا تؤهلها لهذا الأمـر، عادت أدراجها نحـو المنزل وهي تستعيد أحداث اليوم مـن ذاكرتها، تذكرت كلمات ودّ الأخـيرة بدت كسكين يخترق قلبها، ثم ماذا عما قاله حسام، لا بد أن الاطفـال قد أخبروه كل شـيء، حتى تواجد مهلب، لم تكن تريد أن يعـرف بهذه الطريقة، عموماً لا يحق له الغضب منها، هو بالذات دون كل الازواج لا حق له بالعتاب، كما أنها لم تكن وحيدة معه، لكن ماذا لو عرف بالمرة السابقة؟...

رنَّ هاتفها معلنا وصول رسالة:

كيف أنتِ الان؟

لم يسجـل رقم المرسـل ضمن قائمة الأسماء لديهـا، قطعاً لن يكون حسام هو المرسل، لكن من غيره على معرفة بما حصل معها، لا يعقل أن يكـون مهلب، فلم يسبق لها أن أعطته رقم هاتفها، ضغطت على الرقم

Arab_Books

للاتصال بـه، وهي تحاول إيجاد مفاتيح الشقة بين كومة المفاتيح المعلقة في سلسلتها. جاءها صوت حسام:

– أين كنتِ يا مدام؟

لم يأتهـا الصوت من سماعة الهاتف، بـل كان خلفها مباشرة، حين التفتت كان يقف هناك حاملاً ودّ نائمة على كتفه، أغلقت الهاتف رغم سماعهـا لصوت يصدر منـه، توجهت مباشرة لحمـل صخر الذي بدا شاحب اللون.

– كنت في موعد، ألا ترى تأنقي المفرط.

قبلت رأس صخر ويديه.

– آسفة يا حبيبي أرعبتكم اليوم.

– يبدو أن عليك العودة إلى طبيب المجانين ذاك.

رمقته بنظرة ملؤها الكره.

– لندخل الأطفال الفراش ثم نتحدث لاحقاً، لدينا الكثير للحديث عنه.

– بالضبط هناك الكثير يا رهف.

كل ما خطر لها في تلك اللحظة، العلبة فقد تركتها هناك، ومعها شريحة الذاكرة، عليها أخذها قبل أن ينتبه لوجودها، فحتى لو تنبه للزهرة من قبل لكنه لم يكن على علم بالشريحة حسبما تظن. أنزلت صخر من أحضانها.

Arab_Books

– هيا يا صخر، اغسل وجهك ويديك وأسنانك لتستعد للنوم.

– لكن ودّ نامت دون أن تغتسل، لا أريد أن أغتسل أنا أيضاً.

– ألم تعدني اليوم بترك العناد يا بطلي؟

توجـه نحو الحمـام متذمراً، بينما استغلت هي غيـاب حسام في غرفة الأطفال، أخفت الشريحـة في حمالتها الداخلية، ذاك الجب السري الذي ورثـت فكرة استخدامه من والدتهـا كان بمثابة بنك العائلة، الخزينة السرية لراتب الأب الذي يسلمه لوالدتها مباشرة، أيضاً كان يحوي في فترة مراهقة أخيهـا مفتاح تلك الغرفة الصغيرة أعلى سطح المنزل، بعد أن اكتشفت في إحدى الليـالي تسلل ابنها وابنة الجيران إليها، ليطفئـا ثورتهما الهرمونية، لطمـت الأم في ذلك اليوم وبكت، خوفاً مـن تبعات الموضوع وحاولت استجواب الابن عن مدى عمق ما حدث، حل الأب المشكلة يومها:

ابنـك صار رجلاً، لماذا تولولين، العيب ليس منّا، وهي ليست بنتنا، والجيران لم يربوا بنتهم ولا علاقة لنا بها.

منذ ذلك اليوم والسطح من المناطق المحرمة الوصول إلا بعلم الأم، خوفاً من انتقام الزمان من بناتها قالت لابنها يوما بعد سلسلة علاقاته اللعوب:

ألا تخاف على أخواتك ؟ أن ترد عليهن لعنة افعالك

حسنـاً إذن لا ذنـب لها بكل ما حدث مع قريبهـا، كان ذلك انتقام قدر لا غير.

شعرت ببرد شديد، زادت من حرارة التدفئة، وتوجَّهت نحو المطبخ أخفت العلبة في دولاب الأطعمة الجافة لن تصل يد حسام لهناك أبداً.

Arab_Books

صحت على صوت منبه الساعة، فتحت عينيها بتثاقل، فكرت بالعودة إلى النوم لكن لا، عليها تسليم بحثها للأستاذ اليوم، ستحاول أن تتجنب رؤية زاهد لن تسامحه ما حيت على فعلته تلك.

– رهف.. رهف اصحي.

صرخت بصوت عال حين رأت وجه حسام أمامها.

– هل جننتِ لم كل هذا الصراخ؟

أدركت أنها كانت تحلم، لم تستطع ليلة أمس أن تغفو بسهولة التهمت حبتين من المنوم، فلم تستطع الاستيقاظ أيضاً.

– ودّ.. صخر... المدرسة.

التفت حسام نحوها وهو يهز بكفيه.

– لا أعرف ما الذنب الذي اقترفته ليعاقبني الله بزوجة مجنونة، اليوم عطلة، لكن يبدو أن هناك ما يشغل تفكيرك، أو ما يجعلك متشوقة للذهاب إلى مدرسة الأولاد.

لم تكن تملك القوة الكافية للرد عليه، خصوصاً بعد معركتهما الطاحنه ليلة أمس، سحبت الغطاء على رأسها واندست بفراشها.

– ألن تحضري الفطور؟

اكتفت بعدم الرد عليه مديرة جسدها نحو الاتجاه الآخر، وفي بكل الأحوال فإن هذا من مصلحته هو، فهي لا تضمن صفاء ضميرها، قد

Arab_Books

تضيف السم إلى طعامـه تماماً كما يضيف هو لكلامه معها، كلماته ليلة أمس لا تزال عالقة في ذهنها، وهو يذكرها بتفضله عليها لانتشالها من فقـر عائلتها، وإبقائها كزوجة له بعد كل ما سمعه عن علاقتها المشبوهة – كما يصفها – بزاهد:

– يبدو أنك قد علمت بقدوم ذلك الدجال هنا فتبعثرت أوراقك.

حـين قال هذه الجملـة كان يبدو متأكداً من وجـود زاهد هنا، وإن صـح هذا يعني ورود احتمال أن تكون قد ظلمت مهلب وأن زاهد هو مـن يتلصص على حياتها الآن، لكن حسام كان يتخبط كالثور الجريح، فساعـة يلوح بقـدوم زاهد وفي نفـس الوقت كان يلمـح حول علاقة تربطها بمهلب، أنهت الحديث الذي طال:

– أنت تـرى انعكاسك عليّ يا حسام، أنا لا أملك انعدام ضميرك، كما أنني لا أشبه قريبتي، ولا حتى عشيقتك تلك التي تنادي بالإنسانية، فتغيث الأطفال من موت المجاعات، وتحاول قتل آخرين بسلب آبائهم من أمهاتهم.

لم تفهـم سبب ارتباكه حين ذكرته بناديـة، حبيبته التي تعرف عليها في إحـدى مؤسسات الاغاثة، تلك الفضيحة التي تم التستر عليها بدفع بعضـ الآلاف من الدولارات، لم تتضـرر نادية، بالعكس ربحت صك وصـول ساعدها في ملف الهجـرة الذي قامت بإبـرازه، ادعت تقييد حريتهـا في بلدها، قالت بأنها مهددة بالقتل بسبب عشقها لرجل لطالما تمنتـه، لم تذكـر أن الرجل متـزوج، لم تقل أنه تعرف عليهـا وهو ينقل تبرعـات زوجته لتلك المؤسسة في إحـدى رحلاته للوطن، عرفت كل هذا بالمصادفة في إحدى جلسات النميمة النسائية التي يتم خلالها سرد

Arab_Books

القصص المختلفة عن النساء اللاتي يدخلن المجتمع المهاجر حديثاً:

– ذكيـة هـي، نجحـت في الوصول إلى هنـا، وأجبرتـه أن يدبر لها السكن والعمل، هي جميلة والجمال يصنع المعجزات ويهب الحظ.

حين واجهته بما سمعت عنه لم يهتز له جفن، كل ما قاله:

أنا رجل والشرع يسمح لي بأربع نساء.

منـذ ذلك اليـوم وحتى بعد عودتـه ذليلاً بعد ترك ناديـة له، لم يعد حسام بالنسبة لها زوجاً، هو فقط والد طفليها اللذين تحرص أن لا يعرفا حقيقة خواء ما بين ذويهم خوفاً على مشاعرهم.

سمعت صوت إغلاق الباب، كان أول ما خطر لها في تلك اللحظة الشريحة، تركت فراشها بتكاسل، أطلت على غرفة الأطفال لا يزالون نيامـا، حمدت الله سيكون لها الوقت الـكافي لمشاهدة محتواها، كان حجمهـا لا يناسب هاتفها، فكـرت بجهاز الاطفال اللوحي، لم يكن مناسباً أيضاً، تذكرت حاسوبها المحمول القديم، حاولت تذكر مكانه لكـن عبثاً فعقلهـا مشوش جـدا، توجهت نحو المخـزن، كان هناك الكثير من الأغراض أيـن يمكن لها أن تجده، لمحت حقيبة سوداء تشبه حقيبه جهازها مندسة بعمـق بين الكراكيب، فكرت بكيفية وصولها إلى هنـاك. يبدو أن الحقيبـة قد وضعت في تلك الزاويـة منذ انتقالهم إلى هـذه الشقة قبل عام، حملـت ذاكراتها المرهقة سبب عدم تذكرها متـى كانت آخر مرة استخدمت فيها الجهـاز، وصلت بصعوبة إليها، حـين حاولت فتح الحقيبة وجدت أن لا رأس لسحّاب الحقيبة، تمت إزالتـه وصمّغت أطرافه، من المؤكد أنهـا ليست حقيبتها، ولكن لم تم

Arab_Books

إقفـال الحقيبة ووضعها بهذه الطريقة، حاولت فتحها ولكنها لم تفلح بينمـا كانت تبحث عن أداة تساعدها في فتحها، تناهى لها صوت ودّ باكيـة، وهي تصرخ باسمها أعادت الحقيبـة مكانها بسرعة وتوجهت نحو ابنتها.

– لا تبكي يا صغيرتي.

– ظننتك قد تركتنا ورحلت يا ماما.

– لم تقولين شيئاً كهذا؟

– أنـت غاضبـة طوال الوقت منـذ أيام وتصرخين كثـيراً حتى على أبي، أخبرتني صديقتي بأنها صحت يوماً و لم تجد والدتها بعد عراك مع أبيها، و لم تعد منذ ذلك اليوم.

– لماذا؟

– لا أعلم لكنها كانت غاضبة دوماً مثلك.

حملقـت لدقائق بوجه ابنتها، يا الله ليتهـا تعلم كم قاست وتحملت فقط كي لا يمروا بيوم حزين، ألا يروا انهيارها هذا ولا أن ينكشف وجه أبيهم أمامهم.

– لست غاضبة منكم يا حبيبتي، أنا مريضة قليلاً فقط ورأسي يؤلمني طوال اليوم، لكني آسفة وسأعوضكم اليوم عن كل ما حدث.

غمـرت والدتهـا بحنـان، لامسـت شعـرات ودّ الناعمـة خدها، تذكـرت أمنيتهـا أن يكون شعر ابنتها مموجاً كشعـر زاهد، أخبرته يوماً

Arab_Books

عن أمنيتها تلك، وكالعادة غير اتجاه الحديث فوراً، لم يكن يتحدث عن أي مستقبـل لعلاقتهما أبـداً، فهو مدرك تماماً أن والده الذي أعلن تغيير مذهبه، وقـدم نفسه كرجل دين ليسلم من براثن الحكومة التي أعدمت أقاربـه المعارضـين، لن يسمح أبداً لولده بالزواج مـن امرأة تعيدهم إلى دائرة الشك بمذهبها المنبوذ ذاك.

– ماما أنا جائعة.

– اذهبي لإيقاظ صخر، سنتناول الفطور في مطعم جميل اليوم.

تذكرت أنها تركـت حاسوبها في أعلى رف من دولابها، توجهت نحـو الغرفة كانـت تشعر بصداع رهيـب، فتحت حقيبتهـا بحثاً عن حبوبهـا المهدئة فوجدت القصاصة بين أغراضهـا، خطر لها أن تكون هناك شريحة أخـرى لم تنتبه لوجودها في العلبة الأولى، فتحركت نحو مخبئهـا السري، بحثت عنها مطولاً أفرغت ملابسها أرضاً و لم تجد شيئاً أبداً.

لا يعقـل أين ذهبت؟ يستحيل أن يعلم حسـام بأمرها، الدرج الذي أخفته داخله كان مقفلا، لا أحد يعلم مكان المفتاح غيرها.

ضغطـت رأسها بـين يديها، وضعتهـا بنفسها هنـاك تكرر موقف الأمس مجدداً أستعاذت بالرب ودعته بصدق:

–إلهي لاتحطني بالأوهام مجدداً.

Arab_Books

الفصل الثامن

وفت بوعدها لطفليها، كانا فرحين جداً إنها المرة الأولى التي تسمح لهما بها بتذوق طعام المطاعم، تأكدت من نظافة كل شيء وصحية الطعام ، رغم ذلك لم تتوقف عن الدعاء أن لا يصيبهما مكروه نتيجة ما يأكلون، أرادت تعويضهما فقط، تركت لهما الخيارات مفتوحة لتمضية هذا اليوم فاختارا الذهاب للمجمع التجاري، صخر يريد لعبة جديدة، و ودّ تحتاج لأدوات رسم فما كان لها أن ترفض مطلقاً، كانت المكتبة هي الأقرب من المطعم فتوجهوا لشراء حاجيات ودّ أولاً.

ما إن دخلت هناك حتى وقعت عيناها عليه مباشرة، كان ملفتا للنظر كالعادة، غارساً مجموعة الفراشي التي اختار شراءها بين خصلات شعره، حاولت تجنب لفت انتباهه لكن ودّ قد سبقتها بخطوة، وهي تنادي على أستاذها بفرح، التقطها من الأرض مباشرة واضعا إياها فوق كتفه، بدت سعيدة جداً وهي تنتشل الفراشي من بين خصلاته.

– أتمنى أن يكون مزاجك اليوم أفضل.

اكتفت بابتسامة.

Arab_Books

– جيـد جـدا.. كان في نيتي يوم أمس الذهـاب إلى معهد الرسم لتسجيل ودّ، لم لا نذهب الان سويا، أنا متوجه إلى هناك أساساً.

– لكن....

صرخ صخر معترضاً.

– وعدتني بشراء لعبة وأن نشاهد الفيلم في السينما.

ملاعباً خصلاته بمرح قرر عن الجميع.

– سنذهب الان لشراء اللعبة ونذهب للمعهد، ثم سنذهب لمشاهدة الفيلم معاً.

بكل بساطة ينتشـل الحدود الفاصلة ويكون جزءاً مما يريد، لم يسبق لها أن عرفت شخصاً بهذه الجرأة، إن لم تكن الوقاحة التعبير الأفضل.

– أستاذ مهلب..

أنزل ودّ من فوق كتفيه ووجه كلامه إليها:

– في تلـك الزاوية ألوان ستعجبـك، اذهبي لاختيار ما تريدين تلك هديتك مني لفوزك أمس، وأنت يا صخر لا تترك أختك وحدها هيا.

انتظرت ابتعاد ولديها، وهي تهيئ نفسها لتوبيخه.

– بأي حق تمنح لنفسك صلاحية القرار؟

– أجـدك مشوشـة، أنتِ بحاجـة لي، أقصـد للمساعـدة بالطبع،

Arab_Books

حاولـت الاطمئنان عليك ليلة أمس، زاد قلقلي بعد اتصالك بي بدون أن تتكلمي.

– من أين لك رقم هاتفي؟

– سخّرت الجان.

– أستاذ مهلب..

– مهلـب.. بـدون اضافات تسلـب حميمية الحديـث، لدينا عمر كامل للنقاش ولكن هذا ليس الوقت ولا المكان المناسب له.

تركهـا واقفة وحدهـا بينما عاد لجمع ما يحتاجه مـن ألوان وبعض المعدات الأخرى، توجهت نحو مقعد بالقرب من مكتبة عامرة بكتب الرسـم، حلمت كثـيراً بتعلم هذا الفـن كانت تحتاج للبـوح، للصراخ بطريقة لا تلفت الآخريـن، خصوصاً بعد ما أصابها بعد إعلان الحرب ببضعة أيام، حين أتى قريبهم لأخذهم لمنزل العائلة، في منطقة آمنة أكثر، خلال الطريق إلى هناك بدأ قريبها يتحدث بتشف:

– راح زمـن العنتريات، بعـد أيام قليلة سينتهـي الكابوس الطويل، شبعنـا جوعاً وذلاً، لن يجدوا أحداً يحميهم، ولن يجد القائد وعصابته طريقـاً للهرب، ظن أن بأستطاعته منطاحة اميركا بسيفه الملوث بدماء الشعب، أو بخنجر علي الكيماوي...

كانـت قلقة علـى زاهد، رغـم انقطـاع العلاقة بعد مـا حدث في شقتـه،إلا إنها تمنت أن تعرف مكانه الآن، والده من المقربين للنظام، لو تحقق ما يقوله قريبها المنكـوب بهروب أخيه الشيوعي وحبيبها السابق

Arab_Books

من البلد، سيكون زاهد وعائلته في خطر حقيقي، وتحقق ما قاله القريب يومها، حين أعلن سقوط نظام الحكم دخلت رهف بحالة هستيرية وهي تسمع ما يقال ممن هم حولها، الكل يبدي رغبته بالانتقام لكل من له صلة بنظام أذاقهم الذل والجوع وطعم الفقد، بدأت صحتها بالانهيار هجرت الطعام واحتلت نومها الكوابيس، وهي ترى زاهد كل يوم في غرفة تعذيب، أو يجر بحبال كتمثال المخلوع وأمثاله، همست جدتها لوالدتها بأن ابنتها «مخروعة أو مسكونة بالجن» هذه الخرافة التي جعلت منها مصدر رعب عند أطفال العائلة، وحوَّلتها إلى مادة خصبة لتجارب أقاربها من النساء اللاتي تفنن بقراءة التعاويذ وربط الحجابات لها، استمرت تلك المرحله لشهور في حياتها، جابت خلالها مراقد الائمة والصالحين، كانت ترضخ مقادة من والدتها ؛ لأن تلك هي الطريقة الوحيدة التي تكفل لها خروجها من المنزل، كانت تبقي عينها على الطريق تتأمل الوجوه والسيارات، علها تلمح أثراً له.

طال الجدال بينهما عند دفع الأغراض، أصرَّ على شراء هدية ودّ وأخرى لصخر كي لا يشعر بالتفرقة كما يقول، أمرها بلحاقه بحذر، حمدت الله فعلى الأقل لن يقتحم السيارة أيضا هذه المرة

رحبت به موظفة الاستقبال بحرارة، كان يتصرف كأن المكان ملك صرف له، طلب مقابلة مسؤولة قسم الرسم في المعهد الذي كان يضم حلقات كتابة وموسيقى أيضاً، بدا كل شيء حميماً ودوداً تمنت لو تستطيع هي أيضا البقاء هنا، أن تكون جزءاً من هذه الحميمية الخلاقة، أخذتها المسؤولة في جولة تعريفية وبمحاول ذكية منها بإقناعها بضم صخر أيضا لأحد الصفوف، كانت تستمع لوصفها باستمتاع، وهي تتخيل مستقبل ابنتها كفنانة وامرأة ناجحة مميزة، تلك الأمنية التي لم

Arab_Books

تستطـع تحقيقها لذاتها، كانت ستخرج من غرفة الرسم حين استوقفتها لوحة معلقة بمعزل عن الأخريات، شعرت بالأرض تدور تحت أقدامها، لوحـة بخلفية سوداء قاتمـة احالت كل ما حولها لـذات السواد بثوان، شعـاع ابيض اخترق هذا الظلام تحـول ببطيء لزهرة بيضـاء مشنوقة، شعرت بحرارة تجتاح جسدها، ثم عادت موجة الصقيع تلك لتعتريها، حاولـت فك الشال الصوفي المحيط بعنقهـا، أغلقت عينيها واستمرت تلـك المشنقة بالظهور أمامها، واسم مُهلـب المكتوب تحول إلى صدى مسموع، خرت على الأرض، وهـي ترتجف وتعتصر ركبتيها وتبكي، أرعبـت حالتها الموظفـة فأسرعت لمناداة مهلب الـذي أمرها بالخروج وعـدم السماح للأطفال بالقدوم أبـدا، أخبرته أنها وصلت لهذه الحالة بعـد تحديق طويل بلوحته ثم خرجـت وهي تطلب منه إخبارها إن كان هناك أي داع للاتصال لطلب المساعدة او الإسعاف.

كانـت أشبـه بمن يدخل في حالة تنـويم استمرت بترديـد اسم زاهد والمشنقة.

– أنـت وحشـ، مشنقـة، تستهزئ بألمـي وترسل لي تلـك الزهرة البيضـاء، كيـف عرفـت، كلا، زاهد، زاهـد يحبني هنا عـاد لأجلي، الحرب، لم يشنق كاذب.. لماذا... زاهد...

– رهف.. أنتِ تهذين توقفي حالاً.

لم يفد صراخه، اضطر للتعامل بعنف أكبر استمر بهز كتفها بلا فائدة حتـى طبع كفه على خدها، ظهر الطنين مجدداً، أغنية القائد تعاد، أرتال عسكريـة، سماء حمراء، صـوت زغاريد، مجموعة أزهـار قطفت من حديقة تحملها ابنة الجيران، رسالة صغيرة:

Arab_Books

– ظننتـك كزهرتك المفضلة بـلا أشواك، لكنك مليئـة بها، مبارك زفافك يا رهف.

تعالى نشيجها، ضمها مهلب إليه:

– آسف يا رهف لم أقصد إيلامك لكنك أرعبتني.

– أنت أنت من كنت ترسل تلك العلبة لي، تلك الأزهار منك.

– عن أي علبة تتكلمين؟ وأي زهرة؟

– تلك الزهرة المرسومة.

– تقصدين الياسمين الدمشقي ؟.

– بل أقصد (الرازقي).

– انظري إلى اللوحة تأمليها مجدداً،انه الياسمين يا رهف.

– لا أريد... لا أريد.

نهضـت من مكانهـا تاركة مهلـب ولوحته خلفهـا، كان الطفلان بانتظارهـا في استقبـال المعهد، مدَّت يديهـا لهما، فتعانقـت أيديهما الصغـيرة مع كفيهـا المتعرقتين، خرجـت مستندة إليهمـا، كانا الشيء الحقيقي الوحيد في حياتها هذه اللحظة.

Arab_Books

الفصل التاسع

مـرت خمسة أيام دون أن تستلم أي علبة جديدة، عاودت مراجعة طبيبها النفسي مرة أخرى تخاف على ولديها كثيراً، وهذا ليس بالشيء الجديد، تكمن المشكلة بأنها تخاف عليهما منها للمرة الأولى، أعطت الشريحة للطبيب كدليل على وجود العلبة حاولت فتح الملفات المخزنة فيهـا إلا إنهـا أقفلت برمز سـري، حاولت مراراً تخمين مـا يملأ تلك النقـاط السوداء المتعجرفة التي تنهرها في كل مرة تخطئ بها لكن دون جدوى، بحثت كثيراً عن العلبة الأخرى لكنها اختفت هي أيضاً.

اتعبها البحث عن دليل، تحتاج الدليل لذاتها، قبل أن يكون لطبيبها، لم تجن، هي متأكدة من ذلك لقد شمت رائحتها التي كادت السنون أن تنسيها كيف تكون، تلك الزهـرة التي عذبتها كثيراً حين قرأت رسالة زوجها لسيدة التبرعات تلك قائلا: إن لها قلباً ببياض الرازقي، وجسداً برائحته، لم تكن تعلم أي صدفة مشؤومة قادتها لهاتفه في ذلك اليوم، حـين نسيه بعد أن قضيا ليلة زوجية بدت مميزة عن مثيلاتها فتأخر على عملـه صباحاً، نسيه على طاولـة الحديقة في منزلها القديم الذي خسره في إحـدى مضارباته الماليـة، نصف شركة ومنزل قيـد الرهن، أجبرها ألا يكون سجنها روحيـا فقط، بل قيد وثاقها بهذه الشقة الكئيبة، هي الفتاة التي طالما رددت والدتها عليها:

Arab_Books

– يمكـن أن تكون عمتـك دفنت سرتك في الحديقـة بدل المدرسة، خبريني ما الذي يربطك بالحديقة، هل تعشقين فلاحاً يا بنت.

رغـم كل التشويش الذي تمـر به لكنها لا تستطيـع نزع زاهد من تفكيرهـا، ذكرياتها باتت تحاصرهـا في صحوتها ووقت نومها، تعود إلى مصاطـب الجامعـة، كان يفصل بين قسميهما عشـر دقائق يلتقيان في منطقـة وسطية بعيداً عن أعين زملائهمـا، فليس من المناسب لابن رجل الدين أن يحظى بحبيبة، خصوصاً وهو مؤهل لأن يكون خليفة أبيـه، فعـلا كان يشبهه بكل شيء خصوصا بخلـع جلد وارتداء آخر، تكرهـه بنفس حجم حبها لـه، فكرت كثيراً لو أن أمهـا عرفت بأنها تفكر برجل وهي على ذمة آخر، كانت ستولول وتضربها حيناً وتعود لتلطـم خدها، تماما مثلمـا فعلت مع أي مصيبة كانـت تحل في المنزل بسبب أولادها.

الولدان نائمان، لا شيء لتقوم بفعله، لم يعد حسام، وتكاد تجزم بعدم عودته هذه الليلة، لفـت نظرها الجهاز اللوحي الخاص بصخر، فكرت للحظـة لم غـاب عنها أن تبحث عن زاهد خـلال الفيس بوك، أغلقت حسابهـاَ منذ فترة، الأخبـار الموتـرة، الصفحات التي تبـث الكراهية هـذا ما تذرعت به لكل مـن سألها عن سبب غلـق حسابها الناشط في ذلك العـالم الأزق، كان مهربها من غربتها لفـترة طويلة، دخلت عالمه بقـوة شاركت أراءها، تعرفت على عدد كبير من الأصدقاء، بكل فئات المجتمع، لكنها صُدمت بوهميته، بالأحرى هي أقنعت ذاتها بوهميته، كان آخـر ما تصفحته صفحة مخصصة لجامعتها استوقفها يومها منشور لأحـد الاصدقاء ينشـر خلاله صورة لزاهـد، مع راقصـة في أحضانه، استخدمـت الصورة كدليل على فساد الحكومة الحالية، وواصفة والده

Arab_Books

ببوق لترديد ما يريده السياسيون ذوو الجيوب العامرة، أرجع لقبه القديم والاصول التي تبرأ منهـا لسنين طوال، غير لون عمامته حسب الموضة الرائجـة الآن، أمـا ولده الذي دخل الحـراك السياسي فهـو اليوم أحد أكـبر أبطال المواقف المخزيـة، كان هذا جزءاً مما قرأتـه، لم تكن تعرف لم اختـارت قرار غلـق نافذتها تلك ، أهو خوفها من الحنين، غيرتها، أم للاحتفاظ بصورة بيضاء صغيرة له.

رغـم مرور عام كامل علـى آخر مرة وقعت عينهـا على منشور في هـذا العالم السحـري إلا أنها لم تجـد أي تغيير فعلي، كل مـا هو سلبي معلن وكل ما هو جيـد محارب، كأنها أغلقته بالأمس فقط، بدأت عدد النقرات على الشاشة بالتزايد مع تزايد فضولها، دخلت نوافذ الاصدقاء ،تلصصـت على حياتهم بصمت دون أن تعلن عـن عودتها، هناك من أنجـب، من تزوج، من هاجر، و لم تغبـط سوى من تطلق، فتحت نافذة للحـوار، كانت واحدة مـن صديقاتها القلائل اللاتـي يعرفن بعلاقتها العاصفة في الجامعة.

من وين طلعت هالشمس؟

ضحكـت كثـيراً، كان مقطـع الأغنية هـذا كلمة السـر التي كانت تقولهـا لها كلمـا ما لمحت زاهد قادمـا إليها، كرمزية علـى كونه أحد أزلام النظام، وحظوة رهف بعاشق كهذا له مستقبل واضح ومضمون.

– سألتقط صورة لهذا الحديث، وأعلن دعمك للنظام البائد.

– ألم تدعميه بقلبك ووجدانك يوماً، أم أنك مزقتِ الماضي كجواز سفرك؟

Arab_Books

– وهـل أنـا الوحيدة التـي تبرأت مـن الماضي يا صديقتـي، ثم ألا تطمحـين أنـتِ أيضاً إلى تمزيـق جوازك، حين حدثتـك آخر مرة كنت تعدين أموال آخر جمعية شاركت بها، تلك التي تجمعين أموالها لتهديها للمهـرب الذي سينقذك من براثن الوطن، ثم مـاذا أيضاً الماضي ؟ كان يبدو مزدهراً جداً مع الراقصة في واحد من ملاهي الدول الأوربية، فلم يقع الذنب عليَّ أنا فقط حين أنوي الهروب، هل يعد نجاحي تهمة؟

– يبـدو أنك تغيرت كثيراً يـا رهف، أراك تشمتـين برجل رفضت الحديث عنه يوماً بسوء وهو حي، بينما تنهشين جثته ميتاً الآن!

– عن ماذا تتحدثين؟ أي جثة هذه!

– رهف !!!!!

– ماذا تقصدين.. تحدثي؟

– لم اختفيـت إذن، خمنـت ان غيابك كان هروبـاً بعد ما أشيع خبر مقتل زاهد، أصبنا جميعاً بصدمة، حين رأيت تفعيل حسابك الآن ظننت أن تكذيب خبر وفاته ورؤيته في أحد شوارع أمريكا قد وصلك؟؟

– أنا لا أفهمك، هل قُتل أم هو في أمريكا الآن؟

– لا أحد يعلـم، يُقال إن مقتله خدعة قام بها ليتمكن من الهروب، بعـد صدور اسمـه في قائمة الأسمـاء المطلوبة للمحاكمـة، بعد إثبات فسادها، وسرقتها المليارات.

– سأذهب الآن وأحدثك لاحقاً..

Arab_Books

عادت كل صور أحلامها، وهو يشنق ويعذب، وهو يجر في شوارع بغداد، بدت لها تلك الأحلام كحقيقة تحدث أمامها الآن، طبعت اسمه على محـرك البحث، صـورة الراقصة عادت من جديـد، قضايا فساد، صور إعلامية لـه ولوالده، مهاترات وحكايا أعلـن النصف منها، هذا هـو الحال دوماً في العراق، نصف الحقيقـة فقط هو ما يُحكى، لذا تجد الظالم في أعين غيره أسطورة، والمظلوم عند آخرين جباراً، كل ما هنالك كلٌ يـروى الأحداث حسبما يـرى لا حسبما وقع بالفعـل، حتى ذاته الـذي حكم العراق لعقود هو سفاح ومنـزه في نفس الرقعة الجغرافية، ويحـدث أن يكـون في نفـس العائلة أيضـاً، يتغزل البعض بصلادته، ويصفه آخر بجرذ جبان، كل منهم يملك وجهة نظر، ولا ضير في ذلك، تكمـن المشكلة بأولائك الذين يتلونون كالحرباء على حسب لون البيئة حولهـم، فكم منهم كان بلون زيتي يطوف فـوق الروح تاركاً الرعب والهول، ثم تغير إلى لون السواد مدعياً الحزن والمظلومية.

هناك أخبار تؤكد مقتل زاهد وأخرى حديثة مع صور تؤكد تواجده في أمريـكا، إن صح ما يقولون فيكون هو فعـلا من وضع الزهور أمام منزلهـا، لكن ماذا لو كانت كذبـة وإشاعة، ماذا لو صح مقتله؟ فكرت للحظة بأن هذا هو الأفضل لها ولمستقبل عائلتها، ولكن هل تتمنى موتة حقاً، هي التي كانت ترسمه بخيالها كل ليلة فتنام في أحضانه، تداعب خصلاته ويخبرها آخر الأحداث التي مرت عليه اليوم، هي التي أمضت السنتين الأخيرتين من زواجها تحـدث خياله شاكية بكل ما يؤلمها، هي التـي كانت تردد اسمه وقـت صلاتها داعية الله أن يتـوب عنه ويهديه الهدايـة الحق، ألم تلون تلك العلبة السـوداء حياتها فقط لانها أملت أن تكون منه، كيف تجد في فكرة موته اليوم إحساساً بالأمان ؟.

Arab_Books

قُطعت أفكارها برسالة على هاتفها، كانت لوحة غير مكتلمة، لامرأة مشنوقة بحبل من زهور بيضاء، كانت تلك ملامحها هي كيف له أن يجرؤ. ضغطت على زر الاتصال مباشرة:

– آمل أن تكون أعجبتك.

– من تظن نفسك، بأي حق تهزأ من آلامي وتجسدها بطريقتك الخاصة، لاأظن أن كل الفنانين وقحون مثلك.

– لا.. ليسوا جميعاً مثلي لذلك هم فاشلون.

– ومن أنت وما ميزتك بالحياة لتصفي الآخرين بالفشل.

– ستكون اللوحة جاهزة غداً، أنتظرك في ذات المقهى.

– تتحدث وكأنك متأكد من قدومي.

– انا واثق تمام الثقة، عموماً تذكري أنا هنا لأساعدك، تصبحين على زهرة بيضاء.

أغلق الهاتف دون أن يمنحها فرصة للرد، شعرت بوحشة وخوف عاودت النظر نحو الصورة من جديد، بدأت تشعر بالاختناق، اتصلت على هاتف حسام كان مغلقاً.

هو على موعد غرامي هذا ما أوحته هيئته قبل الخروج، قاومت رغبتها بالصراخ، جلست القرفصاء، ضمت نفسها بذراعيها وبدأت تهدئ روعها بأغنية قديمة، كثيرا ما استمعت لعمتها وهي ترددها حين يزهر الحنين بروحها: «احنا مشينا مشينا للحرب عاشق يدافع من أجل محبوبته احن مشينا للحرب..».

Arab_Books

ادعت كثيراً تعاطفها مـع هذة المرأة التي كانت مثالاً للحزن، لكنها الآن فقط عرفت أن هناك ما هو أقسى من الحزن كثيراً، إنه الضياع.

Arab_Books

Arab_Books

الفصل العاشر

كان وجهها شاحباً جداً، حاولت أن تخبئ آثار الليلة الماضية ببعض الألوان، إلا أن الكحل أبى أن يستر ما أصاب جفنيها، تسترت بنظارة سوداء واستعدت للخروج.

أكد على موعدهما برسالة صباحية مع وقت خروج الأطفال إلى المدرسة، شيء ما دفعها للقيام والتحضير للخروج، هي التي رددت طوال الليل على نفسها بأنها لن تذهب.

نظرة أخيرة على المرآة، كان كل شيء مائلا للعتمة بسبب العدسات القاتمة، هذه العدسة التي ستمنع أشعة الشمس من الدخول إلى عينيها، وستمنع نظراته الضيقة من اختراقها، تلكأت بالخروج، خطر لها لو أن حسام على معرفة بموعدها، نهرت ذاتها لم يعد من سهرته الماجنة حتى الآن، ثم أن موعدها ليس موعداً عاطفياً لتعتبره من الأمور التي يجب القلق حيالها.

فتحت الباب بعد أن ألقت نظرة أخيرة على المنزل، كانت على وشك أن تطأ قدمها خارج العتبة حين تعثرت بشيء ما.. ذات العلبة السوداء، كاد قلبها أن يتوقف، عاودت كلمات مُهلب إلى ذاكرتها: تصبحين على زهرة بيضاء.

Arab_Books

عادت نحـو الداخل، وضعت الزهرة داخـل حقيبتها وبحثت عن شريحـة جديدة، لا شيء سوى قصاصة صغيرة، كتب عليها الرمز الثاني (A).

حاولت فهم مضمون ما يحدث، ولكن خطر لها أن تتصل بطبيبها، ستأخذ العلبة له لتبرهن على صدق حديثها، وأن تلك الزهرة ليست من صنع خيالها:

– رهف!!!

دسَّت العلبة في حقيبتها بسرعة.

– ما بك؟ لم ارتبكت ولماذا تركين باب الشقة مفتوحا؟

كان حسـام يقف أمامها بهيئة مبعثرة، تبدو آثار السهر واضحة على محيـاه، تجاهلته خارجة، لم تكن بحالة مناسبة للجدال، عموما لا يهمها كثـيراً أيـن أمضى ليلته وما حدث معه، لا شـيء أهم من زيارة طبيبها و إبلاغه بما حدث.

كانت ترتجف وهي تعطيه الزهرة.

– قلـت لك يا دكتور، أخبرتك لست بمجنونة، لكن العلبة اختفت، لا أعلم أين أو حتى كيف؟

طلب منها الهدوء وسألها عـن تحليلها للقصاصة، توصلا لفكرة أن تكـون حلاً لكلمة السر، المشكلـة تكمن أن هناك علبة لم تحصل عليها، ولا تملـك أدنـى فكرة عما يمكن أن يكون قد سرقهـا من عتبتها، فحتى

Arab_Books

جارتهـا العجوز التي تشاركهـا الطابق مسافرة، ولا أحد يمر من أطفال الجيران و.. كيف لها أن تنسى حسام.

– حسام، زوجي يا دكتور أنا متأكدة من كونه هو من يأخذ العلب، سأذهـب الان سأكون هنا على موعـد الجلسة القادمة، أعتذر لاقتحام مواعيدك.

تركت العيادة بسرعة مشابهة لدوخلها قادت سيارتها متوجهةً نحو المنـزل كانـت تفكر بكل ما يحـدث، لا بد أنه يشك بهـا، يحسب أن مرسـل العلبة عشيقها السري، لابد أنـه يشك بها وبمهلب هذا المجنون الذي اقتحم حياتها دون إذن منها، قد يهدم دعائم منزلها المتهالك أيضاً، ماذا لو اتهمها حسام بالخيانة، سيأخذ حضانة الأطفال منها، سيخبرهم بأنهـا أم سيئـة اختارت قلبهـا وفضلته على أولادها، هـي التي تحملت خيانته وكل عقده النفسية في سبيل أن يهنأ أطفالها بحياة مستقرة.

أوقفـت السيـارة بسرعة عند بوابـة المبنى، كان مُهلـب يقف هناك يتكئ على سيارته بتملل فصرخت وهي تضرب على المقود:

كيف يتجرأ هذا المخبول على الوصول إلى هنا؟

صفت السيارة بطريقة خاطئة وترجلت منها وهي تغلق بابها بقوة

لم أنت هنا، كيف تسمح لنفسك بمطادرتي على هذا النحو؟

أبتسم لها وهو يخطو نحوها بهدوء.

– تأخرت على الموعد فقلقت عليك، ثم إن اللوحة بانتظارك.

Arab_Books

– أتريد تخريب حياتي، ماذا تريد مني يا هذا؟

– وكأنك تملكين حياة يا رهف، أنت لم تعرفي معنى الحياة بعد، أنتِ أشبـه بطفل دخـل غيبوبة ثم صحا بعد عشرين عامـا، وأنا من سيعيدك لهذا العالم، أنا سبيل خلاصك من هذه الغيبوبة والكابوس.

– بـل أنت الكابوس الوحيد الذي أعرفه، اتركنـي لأعيش حياتي كما أريد.

اقترب منها واضعا زهرة بيضاء – استلها من جيبه – بين خصلاتها.

– سأتركك حين يكون هذا ماتريدين حقاً.

أخذت الزهرة من بين خصلاتها وسحقتها تحت أقدمها.

– أرجو أن يكون هذا دليلاً كافياً.

الساعـة تشـير إلى العاشـرة، لا يـزال حسام خارج المنـزل حاولت الاتصـال بـه لكن بلا جـدوى، فكرت بـكل الحلول، طهـت الطعام ولعبـت مع طفليهـا دون أن يتوقف عقلها لدقيقة، بعـد أن تأكدت أن مُهلـب هو مو يضع تلـك العلب وأن لا علاقة لزاهـد بما يحدث لا بد لها أن تصارح حسام، لتدفع الشك عنها، لا تريد أن تحرم من أولادها، ستتوسـل إليـه أن يصدقها، سيرفع أوراق علاجهـا النفسية ويثبت عدم أهليتهـا، ماذا لو عرف بما حدث في المدرسـة، إن أحضروا تلك المعلمة ستثبت عدم أهليتها، بدأت تضطرب أكثر فأكثر، أخذت تتجول بالشقة في محاولة لقطع دابـر تفكيرها، عاودت محاولة الاتصال بحسام بلا أي جواب منه، وصلتها رسالـة أفزعها صوت الهاتف وسط الهدوء الذي

Arab_Books

يعـم المنـزل، فأسقطته من بين يديهـا كانت تقف بالقـرب من المخزن حـين انحنت لالتقاط الهاتف لمحت أن الضـوء لم يطفأ بالداخل، لابد أنهـا نسيـت إطفاءه، فهي تنسـى كثيرا هذه الأيام، حـين فتحت الباب تذكـرت الحقيبة في آخر مرة، تركـت هاتفها جانباً وأبعدت الحاجيات بحثـاً عنها، لم تعدها آخر مرة لمكانها فوصلـت إليها بسهولة، حملت الكثير من الأغراض مـن منزلها القديم، مقتنيات كانت تعني لها الكثير لم تستطـع تركهـا، هي المرأة التي تحـوك من ذكرياتها دثـاراً كي تدفئ أوصالها المرتعدة مـن الوحدة، بحثت عن مقص أو أداة تساعدها على فتح الحقيبة، بعد معاناة طويلة قررت أن تمزقها بسكين، حتى لو غضب حسام فمن حقها معرفة ما هذه الحقيبة الغريبة المزروعة في منزلها، بعد أن وصلـت لمحتوى الحقيبـة وجدت أن لا شيء يدعـو لإغلاقها بهذه الطريقة، لا بد أنه خشي من عبث الأطفال بها وإفسادهم الاوراق التي كانت تحـوي عدداً من عقود قديمـة لشركته وعدداً مـن عقود وأوراق أخرى لم تفكر بقراءتها، أتت بحقيبة جديدة لنقل الأوراق والمستندات، تأكـدت من خلو الجيوب جميعها، بين تلك الكومة لفت انتباهها ورقة بـدأت بالبسملـة، لا عقود هنا تبدأ بشيء كهذا بـل إن جميع الحروف عربية، عقد زواج، توقيع حسام و نادية.

Arab_Books

بالتأكيـد أن غضبها الآن غير معنـي بغيرة الزوجة على زوجها، هذا ماباتـت تقنع بـه كرامتها الجريحة طوال الليل وهـي تنتظر قدومه، زاد توترهـا وهي تروح جيئة وذهابا، خشيت أن تخرج نحو الشرفة، تحت كل هـذه الضغـوط يمكن أن تستسهل أن ترمـي بنفسها خارجاً، طلب منهـا الطبيب أن تبتعـد عند بدء حالة التوتر لديها عـن أي أداة جارحة أو أي شـيء قد يسبب لها الضرر، بدأت الرؤيـة تنعدم أمامها تكورت كجنين، أغمضت عينها، المطار، فستان زفافها الأبيض، أول خطوة لها على هذه الأرض، هذا البلد الذي أخذ منها كل شيء ووهبها ورقة تتيح لهـا المرور لكل دول العالم، وثيقة تضمن لها المستقبل دون أن تخلصها من براثـن عقد الماضـي، الليلـة الأولى بأحضان حسـام، صخر قطعة حمـراء تصرخ في أحضانها، يبكي فتبكي معه، ود في أول يوم مدرسة، حسـام يزأر فوقها، ينهي بطولته ويتنحى لينام مثل صنم، زاهد، صفعته الاخيرة و.....

– رهف..

كان الصوت مرتجفاً، مذعوراً، فتحت عينيها وهي لا تزال متكورة، شعـرت بآلام حـين حاولت فك جسدهـا، كان يقف أمامهـا مرتعشاً فيظهر صـوت ارتعاشة بحركة الورقة بيده،تركتهـا على الطاولة عمدا ليدرك اكتشافها دون حاجة للحديث معه.

نظـرت نحوه مطـولاً دون أن تقول كلمة واحـدة، تركت مكانها وتوجهـت نحـو غرفتها، لم تكن تعـي ما تفعل حقيقـة الأمر، ارتدت معطفـاً فـوق ملابسها حملت حقيبتهـا وخرجت من المنـزل دون أن تنبس بحرف.

Arab_Books

بدا كل شيء هلامياً، الكون يتموج ببطء، ظهرت السماء لها متهدلة وقريبة جداً، كل شيء متضخم ومتورم، استمرت بالقيادة حتى وصلت مبنى الجامعة القريب من مدرسة ولديها، أوقفت السيارة بمكان خاطئ وترجلت منها، جلست على الحشيش المقابل للجامعة، بدا لها زاهد في وجه أحد الطلاب المتوافدين، كان يشبهه لدرجة كادت بها أن تركض نحوه مرتمية بأحضانه، تطلب منه أن يعيدها بعيداً الى تلك الشقة الكئيبة، لتقبل رأسه وترضى بخيانته، من السهل أن تغفر خيانة من تحب، ستجد بالعشق عذراً له، ثم ماذا؟ فقد خانها لمرة واحدة، بينما يخونها زوجها منذ أعوام، كانت ستقول إن لصديقه قميصاً مشابها لقميصه، ستعطيه أغلى ما تملك...غفرانها

تنبهت لوجود ظل يقترب...

– تقولين بأني مجنون، في رأيك من الأجدر منا بهذا اللقب الآن...

شعرت ببركان يستعر بداخلها وهي تنتفض واقفة.

– من أنت أخبرني من أنت لا بد أنك واحد من الجان، كيف لك أن تكون دوماً على معرفة بمكاني، هل أنت عميل مخابرات؟ رجل عصابات، من أنت بحق ما تؤمن به؟

– اهدئي يا رهف.

– كيف لي..... ومنذ أن وضعت علبك السوداء المشؤومة تلك أمام منزلي وحياتي تنهار أمامي.

– عن أي علبة تتحدثين في كل مرة؟

Arab_Books

– كفاك إنكاراً وكذباً.

– أحبـك نعـم.. أتتبع كل مـا يعنيك منذ أول مـرة لمحتك عيناي، أعيشـ حياتي على أمل أن تكوني لي وأنا واثق من أن هذا ما سيحدث، لكن صدقيني لا أعلم شيئا عن تلك العلب التي أصبت بهوسها.

حاولـت أن تفهم كلماته، أعادتها داخلهـا أكثر من مرة رددتها، لا أعلم شيئا عن تلك العلب رددتها عدة مرات.

– زاهد إنه زاهد.. هو هنا إذن جاء لأجلي زاهد يحبني.

– لا أحد يحبك سواي يا رهف. كفي عن هذا الهراء الذي تدخلين نفسك فيه.

نظـرت نحوه نظرة خاويـة، وتوجهت نحو سيارتهـا انطلقت بها نحـو المنزل، ستذهب لمنزلها وستبقى قرب عتبة الباب حتى يأتي بزهرة جديدة، عندها ستحدثه ستلتقي بزاهد مجدداً.

Arab_Books

الفصل الحادي عشر

دخلت المنزل فوجدته خالياً، حمدت الله أن سيكون لها مطلق الحرية لانتظار العلبة دون تشويش، تركت باب الشقة مواربا، أخذت كرسيا وجلست بالقرب منه، وضعت الحاسوب على ساقها وبدأت بتخمين كلمة السر، خطر لها خياران، نسبة لكون الحرف الثاني هو الالف بالانكليزية فقد تكون الكلمة اسم زهرتها الملعونة تلك، أو اسم زاهد مضافا لرقم أو حرف آخر، نظرت نحو تلك النقاط السوداء بتحد وفرح، فقد كشف سرها أخيراً.

لم تدم سعادتها طويلاً حملت الدقائق القليلة بعدها خيبة لها، لم تجد الكلمة التي تريد، حاولت عدة محاولات تتلاءم مع شخص زاهد، رقمه المفضل، شهر ميلاده و.....

نفدت عدد المحاولات المسموح بها، عاودت النظر إلى الساعة، تجاوزت الوقت المعتاد لوصول العلبة، مع هذا لم تغير مكان جلوسها و لم تفكر حتى بغلق الباب.

أرخت جفنيها قليلاً، لكنها تحفزت بعد سماع قرقعة قرب الباب، نهضت بتأهب تسارعت نبضاتها بتوتر.

لكنها خيبة أخرى، جارتها العجوز عادت من رحلتها.

Arab_Books

– كيف أنت يا ابنتي، لم تتركين الباب مفتوحا، وجهك شاحب هل أنتِ مريضة

كأن الكلمات سُرقت من شفتيها.

welcome back –

رغـم أنها كانت تأمـل أن يكون زاهد هو من يقف على عتبتها الآن إلا أن وجـود هذه المرأة الحنون أهداها إحساساً بالطمأنينة كانت بأمسّ الحاجـة إليه، شيء ما في حضن هـذه المرأة يعيدهـا لأحضان والدتها، هناك طاقة مختلفة تدغدغك في حضن النساء اللاتي عرفن الأمومة، فما أن تصبـح الأنثـى أمّاً ولو لطفل واحد، حتـى يجتمع بها طيب الأرض ودفء الشمـس، يدخـل حنانهن كأيـد خفية تمس روحـك لتطبطب عليها.

انهمرت دموعها كشلال، غصَّت الكلمات بحنجرتها كأنها نسيت اللغـة، كانت تريـد أن تخبرها بكل شيء، دفعة واحـدة لكنها فشلت، تقبلت فشلها هذا، فهو ليس الأول إطلاقاً، ولن يكون الأخير أبداً.

ثلاثـة أيام لم تر وجه حسام خلالها أبـداً، لم يملك الشجاعة الكافية لمواجهتهـا أو حتى مجرد سماع صوتها، يغلق السماعة، حين تكون هي مـن ردَّ على الهاتف، فترك طفليها يجيبون في المرة الثانية، يتحدث مع صخر و ود، يسألهما عن أحوال المنزل، علل غيابه برحلة عمل، كانت هـذه المدة كافية لها لتوكيل محام، ستطلب الطلاق منه، حمدت الله أنها التقطـت صورة للعقد بهاتفها النقال، في البداية تخيلت أنها ستثور في وجهـه، تبكـي، سيأخذ الورقة ناكـراً ويمزقها أمامهـا، لا تعرف كيف

Arab_Books

تحولـت إلى قطعة ثلج، اكتسحها الـبرود وتقبلت كل شيء بصمت، قد يكـون هذا ما تمنته دوما دون أن تشعر أن تتركه دون إحساس بالذنب، دون أن تكـون في يوم ملامة من الأهـل أو من طفليها بعد نضوجهما، بدا لها كل شيء الآن مكتملا كحلم، ستترك حسام، لن يرحمه القانون هنا، سيكون لها كامل الحرية بالعيش مع أطفالها، ستجد زاهد، وتعيش معـه الحياة التي لطالمـا أرادتها معه، لابد أنه تغـير الآن، هذا مؤكد وإلا لم تـرك كل شيء وأتاها هاربـاً، لم يزين بالزهـور عتبةشقتها، الشقة.. خَطـر لها أن تطلب مـن المحاميَ أن يطالب بهـذه الشقة كمسكن لها ولأولادها، يا لمصادفات القـدر، هذا المكان الذي كرهته ما أن وطأت عتبتـه، الآن هي من يتشبث به، كيف حولت تلـك العلبة السوداء هذه الشقـة من سجن إلى بوابة أمل جديد، ستبقـى هذه العتبة ملجأ روحها حتـى يمرها هـو، تراه وتمسكه حينهـا فقط ستترك علبـة الكبريت هذه لتسكنه هو.

عـاودت الدخـول لذلـك العـالم الوهمـي ستطلب مـن صديقتها مساعدتهـا بالبحـث عن زاهد، لابد لها أن تدلّهـا على خيط للوصول له، لزوجهـا العديد من المعارف ولطالما فتحت أمـام فضولها الأبواب المغلقة.

سألت الله أن تكون متواجدة، لا صبر لها للانتظار أكثر.

– مرحبـا، أحتاجـك بموضـوع مهم جـدا، راسليني مـا إن تقرئي رسالتي

ما هي إلا ثوان معدودة حتى ظهرت علامة تدل على قراءتها الرسالة وبداية كتابة الرد.

Arab_Books

–كيـف حالك يا رهف، قلقت عليك في المـرة الماضية، كيف أنت الان؟

– جيدة جداً، أفضل مما تتوقعين ولكني بحاجتك لأكون أفضل.

– إن كنت قادرة على جعلك بحالة أفضل فلن أدخر جهدي.

– أريدك أن تساعديني بالعثور على زاهد.

– ؟؟!

– ألم تقولي تواً أنك لن تتدخري جهداً.

– وهل المطلوب مني أن أجوب المقابر بحثا عنه.

– كلا، زاهـد هنا، لم يمت متأكدة مـن تواجده هنا، فقط أنا بحاجة لشخص يدلني على عنوانه.

– يبـدو أنك في حالة صدمة حقيقيـة، رهف أنت متزوجة، تتركين الاهتمام بزوجك وأطفالك وتطاردين شبحاً؟

– أنـت لا تعرفـين شيئاً، سأشرح لـك فيما بعد فقـط عديني بأنك ستساعديني.

– لنفرضـ أنـه على قيد الحياة هـل ستهجرين زوجـك وأطفالك، وتضحـين بكل شي لأجلـه، لنفرض أنكِ عثرت عليـه، هل ستعاودين اختيـار الظالم نفسه؟ أتحسبين أنه تغير؟! لا يـا صديقتي كلٌ على حاله، لم يتغـير سوى غلافه الخارجي ليتلاءم مع متطلبات هذه المرحلة، لايزال

Arab_Books

زاهـداً ذاته، كل ما في الأمر أنه الان أكـبر وأوضح، زاهد الذي حاول سلبـك عذريتـك يا صديقتـي طمع وكبر فسـرق هو وأقربـاؤه عذرية الوطن، نحن نغتصب منهم كل يـوم نصحو صباحاً فنغسل الجنابة، ثم نستمـع لمحاضراتهم بالعفة، ونردد معهم مفاهيـم الشرف، كدعاء قبل الطعـام، لنضمن وجوده على الطاولة غـداً، لنضمن امتلاكنا للطاقة في المساء.

دون أن تجيب بكلمـة واحدة، أغلقت حسابها مجدداً، لا حاجة لها لسمـاع المزيـد، لن تسمح لأحـد بالتأثير على قناعتها مجـدداً، لن تعيد أخطاء الماضي، هذه المرة لن يجردها من حبها أحد.

سمعت صوتـاً بالقرب من الباب، ركضـت مباشرة، فتحت الباب لتجـد أمامها شاباً بهيّ الطلعة، مبتسماً مـع إنعكاس فرح حقيقي على عينيه.

– مرحباً كيف حالك؟

عقلها مشغول جداً، لديها العديد من الخطط لا مجال لمجاملة غريب الآن.

– تفضل كيف لي أن اساعدك....

نظر نحو رقم الشقة مجدداً وطالع ورقة كانت بيده.

– لابد أنك صديقتها.

– عفواً صديقة من، لم أفهمك؟

Arab_Books

– نادية الـ .....

أكملت الاسم له، وهي تعيد منظر الاسم على عقد زواجهما.

– المنتصر..كلا لا تقطن هذه العاهرة هنا.

بدت صدمة ردها جلية على وجه الشاب، فقال متلعثماً:

– لكنهـا أعطتني يوماً هذا العنوان، وكنـت أرسل إليه هدية خاصة منذ أيام، ألم تلحظي ورود علبة ورود على بابك.

بدأ جسدها بالارتعاش، كانت هذه الشقة عشهما إذن، ذات الشقة التـي أشـير إليها في جلسة النميمـة تلك، ها هي تلتقـم بقايا هذه المرأة مجدداً، تركت لها فتات رجل،منزلاً خرباً،وأضغاث أحلام.

شعـرت أنها تحـاط بغمامة، تسلـق جليد على جسدهـا، ارتعشت بقـوة، صوت صفعة، لحظـة وداع أمها، عمتها تحمـل فستان زفافها، زاهد، لوحة مُهلب...

خـارت قواها، وخرَّت جالسة، وهي تضم جسدها بيديها وتدندن ((احنه مشينا مشينا للحرب.....

Arab_Books

تمت

7/6/2017

ميسوبوتاميا

Tele: @Arab_Books

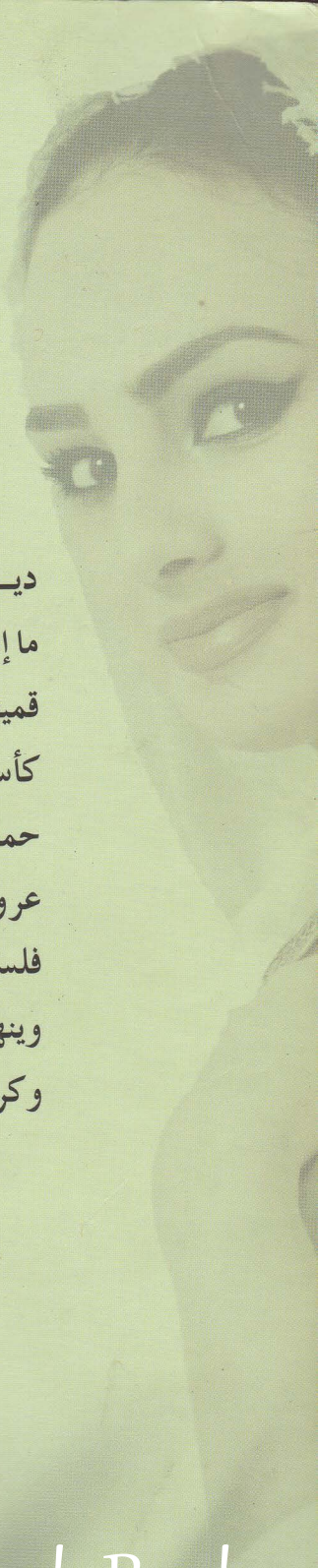

خوفه من الجلوس بمكان عام، مع فتاة وهو ابن رجل دين، لم يمنحها منفذاً غير شقة صديقه التي اقترحها هو، ما إن خطت قدماها داخل الشقة حتى أيقنت ملكيته لها، قميص ارتداه يوم أمس، قنينة مشروب روحي، فارغة، كأسان متسخان أحدهما مزين بلون شفاه عند حوافه، حملت الكأس بين يديها، شعرت أن الدم قد هجر عروقها، بدأت بالصراخ: - تتحدثون عن الدين، تدرس فلسفته صباحاً، تجادل به، يخرج والدك ليأمرنا بالمعروف، وينهانا عن المنكر، طبعا فهو يود أن يدخره لولده الوحيد، وكر رذيلة، تدخلني وكر رذيلة يا زاهد.

ISBN 978-2-843090-55-4

Tele: @Arab_Books